

توفیق

خدیجہ ام اطمین

297.64:T234kA

توفيق

خديجة ام المؤمنين

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
14 1 1972	72-0329G		

297.64

T234kA

DATE DUE

JAFET LIB.

1 FEB 1978

J. Lib

5 JAN 1984

J. Lib

1 FEB 1982

JAFET LIB.

9 FEB 1982



951 2062

9.7.1





AS

297.64

T234K1A

بنيّة لوفيق

بالمعهد العالي للخدمة الاجتماعية

خِلاَءُ الْحَجَرِ الْمُؤْمِنِينَ

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب
الدين

مقدمة

من حسن الظالم أن يكون اتباعي الأدي الأول من
مناجعة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهي التي عاشت
بالحضرة أم علي عليه السلام أكثر من حياته، وكانت
أول من تولى دافع الإسلام من الرجل والنساء جميعاً. وقد
كانت سبباً في إيمان أولادها وأهل بيته، وكان له
في ذلك دور غير قليل.

إلى أمي

وقد تلى في هذا كتاب مناء الزوجة في تتبع الروايات
وعقيدتها والموازاة بينها والاختلاف منها مع عاطفة الزوجة
بصادقة التي لا تحرق عليها تحركات البشرين وأصحاب
السفر فيها، وحاولت جدي في هذا أن أرسم صورة حية
لحياة السيدة العامة والخاصة، والأشخاص الذين شاركوا في
الحياة الخاصة والعامة.

ومن التلميذ أن يمد إلى من لم يسمعها من غيرها من
الذين هم على الراد في رأيهم عليه من المعاصرين.

روايت

مقدمة

من حسن الطالع أن يكون انتاجى الأدبى الأول عن السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وهى التى عاشت النبى صلوات الله عليه ، الشطر الأكبر من حياته ، وكانت أول من لى داعى الاسلام من الرجال والنساء جميعاً . وقد شاركته جهاده فى إعلاء كلمة الحق وإزهاق الباطل ، وكان له منها الولد دون غيرها من أمهات المؤمنين .

وقد التقى فى هذا الكتاب عناء المؤرخة فى تتبع الروايات وتحقيقها والموازنة بينها والانتخاب منها مع عاطفة المؤمنة الصادقة التى لا تجوز عليها تخرصات المبشرين وأساليب المستشرقين ، وحاولت جهدي بعد هذا أن أرسم صورة حية ناطقة للحياة العامة والخاصة ، وللأشخاص الذين شاركوا فى تلك الحياة المتأالية العظيمة .

ومن المؤسف أن زميلاتي من الجامعيات وغيرهن من المثقفات يعشن على الزاد الذى يأتينهن أغلبه عبر البحر المحيط ،

وفيهن من ترغب عن لغتها القومية ، واذا انصرفت اليها فانما
تلقى بالها كله الى المنقول من تلفيقات القصص وأحاديث
المحرفين الفارغين . كما عكفت أقلام الموهوبات - إلا في
القليل النادر - على ما كان ينبغي أن يتركه للجنس الآخر من
الاحتفال بالشهرة دون العظمة ، وعدم التفريق بين الطرافة
والشدوذ حتى أصبح انتاجهن الأدبي كله مقصوراً أو يكاد ،
على التسلية العابرة وتزجية الفراغ الطويل .

ولا أريد أن أتملق نفسي فأزعم أن هذا الكتاب يصلح
للتقافة العامة بما حواه من الأخبار الصادقة والروايات المحمصة ،
صلاحيته للقراءة في قاعات الدرس من معاهد الفتيات التي
لا يكاد يوجد فيها كتاب واحد من تأليف امرأة ، أو أزعم أنه
يجمع بين الفائدة الراقية والمتاع الرفيع ، وحسبه أنه عن أعطر
سيرة بين نساء العالمين .

وهأنذا أرفعه إلى اخواني المنقفات ، ومن يدري فربما
دفعني تشجيعهن الى المضي في هذا السبيل

بهيئة توفيق

القاهرة في ٥ يونية ١٩٤٨

بالمعهد العالي للخدمة الاجتماعية

في ربيع من أكبر رباع مكة ، وبجوار السقيفة البئر المشهورة ، كانت تقوم دار رحبة ، متسعة الجنبات ، سامقة البناء ، يدل مظهرها وموقعها من سائر الدور والبنى المقامة حولها ، على أن صاحبها خويلد رئيس في قومه ، يكثر الوافدون عليه من أشرف قريش وصاداتها ، وينتقل بين أرجاء الدار إماء وعبيد ، تشير كثرتهم إلى ثراء صاحب الدار وسعة رزقه .

عاش خويلد في هذه الدار ، وكان شيعفاً عركته التجارب ، وقور الطلعة ، في حديثه وثوق واتزان ، مع زوجه فاطمة ، وهي امرأة لما تتجاوز الكهولة ، على محياها مسحة من جمال ، ويقال إنها كانت في صباها من أجمل بنات قريش ، عذبة السم لا يفرغ لها حديث ، ومع بنيه تتفاوت أسنانهم بين الصبا واليفاع ، يغلب على وجوههم بشر فيه أثارة من جلد وحزم .

هذه الدار على كثرة من فيها وزحمة الملمين بها ، لا تسمع فيها صغياً ، ولا تحس بها اضطراباً ، فالأبناء يمزحون ويمرحون ،

والعبيد يروحون ويحيئون في حركة دائبة ، كل عمل بقدر وكل
خطوة بنظام

وكان خويلد يقص على بنيه مآثر أجداده ، كان يروى لهم
أن قُصياً جده الأكبر ، هو الذي جمع ما تفرق من أمر قريش في
مكة حتى صارت إليه مقاليدها جميعاً ، فأصبح يقوم على بيت الله
ويسقي حجاجه ، ويتقاضى قريشاً في كل موسم من أموالها خراجاً
يصنع به طعاماً يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وداره دار
الندوة لا تقضى قريش أمراً من أمورها إلا فيها .

ويشرح لهم كيف شرف جده عبد العزى وأخوه عبد مناف
في حياة أبيهما قُصًى ، وكيف أن قُصياً لما كبر ورق عظمه ، ورأى
عبد الدار بكره أقل شأنًا من أخويه ، أقسم ألا يدخل رجل
السكبة إلا وعبد الدار يفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء حرب
إلا بيده ، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايته ، ولا يأكل أحد
من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامه ، ولا تقطع قريش أمراً
من أمورها إلا في داره . وكان قُصًى شديد الاعتزاز بسلطانه
ورأيه ، لا يخالف في أمر يصدره ، ولا يرد عليه شيء يصنعه ،
فأعطى ابنه عبد الدار الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ودار الندوة .

وروى لهم أنه لما هلك قصيّ نفس عبد مناف على أخيه
عبد الدار ما انتهى اليه من شرف وجاه ، وظلمت الحفيظة في
أبناءهما ، وأجمع بنو عبد مناف على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار
مما كان قصي قد جعله له ، فتفرقت عند ذلك قريش ، ولم يكن
بنو عبد العزى يطعمون في شيء ، ولكنهم انحازوا إلى أبناء عمهم
عبد مناف ، ولما نفر هؤلاء وأولئك للحرب وشد بعض القبائل
ببعض ، عبثت بنو عبد العزى لبني عبد الدار ، وبيننا الناس على
ذلك يجمعون أمرهم على القتال إذ تداعوا إلى الصلح على أن
تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف ، وأن تكون الحجابة
واللواء والندوة لبني عبد الدار ، وثبت كل قبيل مع من حالف ،
وظل بنو عبد العزى مع بني عبد مناف .

وهكذا كان الأب يذكر أبناءه دائماً بشرف نسبهم وكريم
عنصرهم ، فيزيدهم بذلك اعتزازاً بأنفسهم وعشيرتهم ويدفعهم
إلى الترفع عما يقترفه السواد ، ويبعث فيهم الطموح إلى مكان
آبائهم وأجدادهم .

وكان خويلد يجتمع مع أخويه نوفل وعمر ، ودار كل منهما
قريبة ، فيصباحون أو يغبقون ، ويسمرون ويجدّون ، فيخرجون

لبعض مشون قريش العامة ، ذلك لأنهم رؤوس بنى أسد
ابن عبد العزى ومقامهم من قريش بل ومقامهم من سائر العرب
كبير . فهم لا يقيمون على صنيم ، ولا يحتملون أن يقيم أحد من
جيرانهم أو من غيرهم على صنيم ، يظنون معه على من صنمه حتى
يرد الحق عليه .

وقد يسافر خويلد في عيرانه للتجارة ، ولكن الدار تظل
كعدها ، دائبة الحركة دائبة النشاط .

ويجتمع أبناؤه مع أبناء عمومتهم والفتيان من بنى أسد ،
فيكون لهم ما للشباب من مجلس وحديث ، وقد يتبارون في عدو
أو ركوب ولسكنهم كانوا مع هذا كله يهزلون ولا يهذرون
ويأخذون من المزاج بالقدر الذى يتيح لهم ما جبلوا عليه من
قوة وحزم .

وكان أشدهم مراساً وأقواهم شكيمة ، نوفل بن خويلد
كان صلب العود ، عابس الوجه فلما يفتّر ثغره عن ابتسام ،
عنيداً يطلب الشيء لا يرجع عنه أو يهلك دونه ، وعرف فيه
اخوته وأبناء عمومته خلائقه ، فأسروا إنكارها عليه ، وكثيراً
ما أخلوا بينهم وبينه ، وكثيراً ما عاظمهم وعاظلوه ، وكان اذا

خاصم أحدهم لج في خصومته ، لا تنبسط نفسه له ولو اجتمعت
عليه العشيرة . وكم من مرة أراد أبوہ على أن يبسط جناحه
للناس ، فما أذعن ، حتى يغضب عليه ، وكان أعمامه يشبهونه
في صلابته وعناده بجده الأ كبر قصي ، وإن أعوزه حجاج
ورشاده .

كان الفتيان اذا اجتمعوا افتقدوا واحداً منهم هو
ورقة ابن عمهم نوفل ، كان أسنّ منهم ، أذنى الى الصمت
منه الى الكلام ، لا يوغل في سمر ، ولا يسرف في لهو ،
ولا يشترك في معازلة ، يغلب عليه التعقل ، ويسكن اليه
من يجيش في صدره هم يقض مضجعه ، اذا استنصح أخلص
وأنى بالرأى الثاقب الحكيم ، لا يضايق القوم منه إلا ارتيابه في
آلهتهم ، ولم يكن يجروء على ذلك غيره .

وكانت نساء العشيرة تجتمع الى فاطمة زوج خويلد ،
لا يلتصق عندها تزجية الفراغ فحسب ، بل كن يستشرنها في
أمورهن ويستعننها في حياتهن .

شبت خديجة وقد أخذت عن أمها فاطمة صباحة الوجه ،
 ووضوح القسما ، وعذب الحديث ، وحب الخير للناس . وعن
 أبيها خويلد أناته وحزمه . وكان الأب يحس هذا ويعتز به في
 وقت توأد البنات فيه ، وكان الأخوة يعتمدون عليها في قضاء
 حوائجهم من الدار ، وكان الاماء والعبيد ، يحبونها لتلطفها معهم
 وعطفها عليهم .

وتنمى كل فتى في قریش أن تكون زوجته وربة بيته وأم
 عياله ؛ ولكن خويلد كان يتغالى في صداق ابنته إعزازاً لها ،
 أن كان يشهر بمجالاتها ورضى أخلاقها .

يرى تنافس سرة قریش وأشرافها على طالب يدها ، فيوازن
 بينهم ليختار أحسنهم خلقاً ومالاً ونسباً ، وكان ابن عمها ورقة يود
 أن يتزوج منها ، وهو يعلم أنها تجله وتحترم رأيه . ولكنه لم يستطع
 إلى ذلك سبباً . وتريث الأب كعادته فيما يواجهه من أمور ،

ثم أجمع أمره وزفها إلى أبي هالة بن زرارة التيمي ، وكان رجلا
ناضجا غير جهم ، جوادا في غير سرف ، حسدها عليه بنات
قريش لسماحته وغناه ، وأنجبت له ولدا فقر به عينا لأنه سيحفظ
اسمه وجاهه . ثم أنجبت له آخر فازداد به فرحا وبزوجه -
«أم البنين» تعلقا وكفا ، وازدادت بنات قريش خديجة حسدا ،
وسميا الولدين .. هاله وهندا .. على عادة العرب يضعون للذكور
أحيانا أسماء الاناث ، وقاية لهما من مكر حاسد إذا حسد .

وعرفت أم هند للتيمي قدره . فكانت تسهر عليه ،
وتصفيه ودها ، وتملأ داره بشراً وأنسا ، وعرفت حق وليها
فكانت ترعاه وتقرها حبا وعظما .

ولكن هناءها لم يدم ، ففضى زوجها ولما نزل في ريعان
شبابها ، مات ولما يشب طفلاها عن الطوق ، فتبدل أمنها خوفا
وجزعا ، لا يخفف منهما ما ترك من ثروة طائلة ومال عريض .
وأقبل خويلد على ابنته ، وقد غلبه الحزن يواسيها ، ويرفه
عنها ، ويطلب لها الصبر الجميل ، فأذعنت أم هند للقدر ،
ورضيت بما قسم لها ، ولم تحمد بصرها وقد تأيمت ، وتيمت طفلاها
إلى من حولها من بنات ، وأكثرهن ، أقل منها مالا وجمالا ،

ينعمن في بيوتهن ومع بعولتهن . وانصرفت جلدة صابرة إلى
تربية ولديها وتدير مالها ، ولم تزدها مسحة الحزن التي ارتسمت
على وجهها إلا جمالا على جمالها .

ولكن ذكرى أبي هالة كانت تعاودها بين حين وحين
تتير كوامنها وتثورق جفنها ، وانها ترى ولديها وقد حرما عطف
الأب ورعايته . ولولا ما جبلت عليه من حزم وجلد لغلبيها لهم
وسود صفحة الدنيا في وجهها .

عاد فتیان قومها كل يريدها لنفسه . وأخذ اقبالهم عليها
يتزايد يوما بعد يوم ، يشجعهم على ذلك ، غير شبابها ووسامتها ،
قوة بدأت تظهر في شخصيتها ، ثم وفرة في مالها . كيف تفكر
في الزواج وهي لا تزال تذكر أبا هالة ؟ وكيف تفكر في الزواج
وولداها لا يزالان في حاجة إلى كل اهتمامها ورعايتها ؟ ..

بيد أن أباه وعمها عمرو بن أسد كانا يلحان عليها في أن
تعيش في كنف رجل يحميها ، أن كان أبوها وعمها شيخين هامة
اليوم أو غد ، وهام فتیان مكة يطلبون يدها فهلا اختارت منهم
السيد الجواد قبل أن يذوي جمالها ، ويولي شبابها ويذهب مالها .
ورصيت خديجة بعد لآي فزوجت من فتي من سراة

مخزوم وأجوادها ، هو عتيق بن عائذ . فأعطته كل مااستطيع
زوجة برة أن تعطيه لزوجها وولدت له طفلة سميت .. هندا ..
ولكن حظها معه كان كحظها مع سلفه ، فهلك ، وكان لها
ولطفلتها من ماله نصيب غير قليل .

اشتد ألمها وتضاعف حزنها ... وانصرفت بكل نفسها
بعد هاتين الصدمتين إلى تربية أبنائها الثلاثة ، وإلى القيام على
مالها بمعونة أبيها وبعض ذوى ثقتها ، تنشد في ذلك العزاء
والسلوى .

ومرض أبوها الشيخ فقلقت ، ثم مات فجزعت ، فقدته
أحوج ما تكون إليه ، فقدت فيه الأب والزوج معا ، فقدت
فيه الخنو والعطف والاخلاص جميعا ، فقدت من كان يلى أمرها
ويدبر مالها ، ويشرف على تجارتها ، فاضطرت أن تستأجر
الرجال في أعمالها ، وتضاربهم بشيء تجعله لهم . وكانت فطنه ،
حسنة القيام على المال ، فالتسعت تجارتها وتضاعفت ثروتها .

وتكاثر طلاب يدها من أعيان قریش ووجوهها ، فيهم
صاحب الحسب العريق ، وفيهم غرض الشباب ، فأعرضت عن
أولئك وهؤلاء ، لقد طرحت فكرة الزواج عن مخيلتها .

أقبلت خديجة وقد صهرتها هذه الأحداث على تربية أبنائها
وتنمية ثروتها . . تنسى في ذلك نفسها وتشغل جل وقتها .
فاستعادت هدوءها ، وظلت على الرغم من هذه المصائب نضرة
العود ، ريانة الشباب ، تحف بها وبأبنائها مظاهر العز والرفاء .

٣

خرج أبو طالب في ركب من قريش الى الشام تاجراً ،
فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير تشبث به ابن أخيه محمد ، فذمعه
وخاف عليه وعناء السفر ووحشة الصحراء ، وطول الطريق ،
ولسكن الصبي تعلق بالركب ، ولما يكن قد ناهز الثانية عشرة ،
فرق له عمه أبو طالب واصطحبه معه وهو يقول « لاخرجن به
معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً » .

ولما نزل الركب بصرى من أرض الشام التقى بهم الراهب
بحيرا ، وكان ذا علم من أهل النصرانية ، وكثيراً ما مروا به
قبل ذلك ، فلم يكلمهم ولم يعرض لهم . ولكنه في هذا العام
احتفل بهم ، وصنع لهم طعاماً كثيراً . . .

تري لماذا؟ ... لانه رأى من صومعته صبيًا تظله غمامة
دون سائر القوم.

وان الركب ليقبل وينزل في ظل شجرة قريبة منه ، واذ
به يرى الغمامة وقد أظلمت الشجرة وتهصرت أغصانها على هذا
الصبي ، حتى استظل تحتها ، فما كان منه إلا أن نزل من صومعته
ثم أرسل اليهم ، ودعاهم جميعا . وأخذ يلحظ الصبي محمداً لحظاً
شديداً ويتفرس فيه ، وينظر الى أشياء من جسده . حتى اذا
فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام اليه يسأله عن حاله في نومه
ويقظته فجعل الصبي يخبره فيجدها الراهب موافقة لما عنده في
الكتب من صفته .

ولما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له :

ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني . . .

قال : ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون
أبوه حياً . قال : فانه ابن أخي .

قال : فما فعل أبوه ؟ . . . قال : مات وأمه حبلى به . . .

قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر عليه
يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شراً . فانه

كائن له شأن عظيم ، فأسرع به الى بلاده .
فخرج به عمه أبو طالب حتى أقدمه مكة حين قرب من تجارته
بأرض الشام .

رأى محمد في هذه الرحلة فسحة الصحراء المهوبة والنجوم
الزهر المتلألئة ، والسماء الصافية الأديم التي قلما ترمد لها عين ،
وشاهد جنات الشام بأشجارها الوارفة الباسقة ، تفوق ما سمع عن
جنات الطائف ونخيلاتها ، وشاهد بأرض الشام كذلك أخبار
الروم وقساوستهم . وكان غلاماً ذكياً فطناً دقيق الملاحظة ،
فأخذ ينظر الى ما حوله ومن حوله نظرة المشوق الى المعرفة ،
الراغب في استكناه المجهول .

عاد أبو طالب الى مكة ، وشرع يحسب ما أخذ وما أعطى
من تجارته ، فاذا النفقة كثيرة ، واذا الربح قليل ، فقنع بحظه ،
ولم يفكر في الرحلة مرة أخرى ، وأقام في مكة يكفل بماله القليل
أولاده السكثريين ، وظل محمد معه يقوم من الأمر بما يقوم به
من هم في مثل سنه ، يرعى غنم أهله ويرعى غنم أهل مكة .

وكان اذا فرغ من رعيه وجاءت الأشهر الحرم ، خرج وأهله
الى الأسواق ، الى عكاظ ومجنة ، وذو المجاز ، يستمع الى الشعراء

في غزلهم ونفرهم ، وإلى الخطباء تستوقفه بلاغتهم ، ويستمع إلى أهل الكتاب يعيبون على أهل مكة وثنياتهم ، ويدعونهم إلى ما يعتقدونه الحق ..

كان الفتى يستمع إلى أقوال أولئك وهؤلاء وهو لا يعرف ماذا يأخذ وماذا يدع . ومن يرفض ومن يتبع .

ونأى محمد عن الدنس ، ولم ينجس فيما ينجس فيه لداته من لهو ، وصان نفسه وطهرها من كل عيب ، ولم يعرف بين قومه إلا بالأمين ، لما شاهدوه من طهارته وصدق حديثه وأمانته .

وقد روى عن نفسه « قلت ليلة لغلام من قریش كان برعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة ، فأسمر بها كما يسمر الشباب .. فقال : افعل .. »

فخرجت أريد ذلك حتى اذا جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير .. . فجلست أنظر اليهم فضرب الله على أذنى ، فنمت ، فما أيقظنى الا مس الشمس . قال : فجئت صاحبي وأخبرته الخبر .. ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك فقال : افعل . فخرجت ، فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت حين دخلت تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب الله

على أذنّي ، فوالله ما أيقظني إلا من الشمس . فرجعت إلى
صاحبي فأخبرته الخبر ، ثم ما هممت بعدها بشيء أبداً .
ولما هاجت بين كنانة وقيس عيلان ، حرب الفجار ، وقد
سميت كذلك لأنها نشبت في الأشهر الحرم ، حضر محمد بعض
أيامها مع أعمامه ، وكان قد أصبح يافعا ، وأخذ ينبل عليهم ،
ويجمع السهام لهم ، وما كادت تنتهي ، وقد استغرقت أربعة أعوام
حتى كان قد ثقف الحرب . ومارس القتال ، وعرف تعبته
الصفوف ، والتقاء الجوع .

في هذه الحرب قتل حزام بن أخويلد أخو خديجة ، وحضرها
معه ابنه حكيم ، وهو صديق لمحمد يحبه ويوده ، وإن كان يكبره
بخمسة سنين .

وعند منصرف قريش من الفجار ، تداعت إلى حلف ، لما
شعرت به من تفرق السكامة وحرص كل فريق على أن يكون
صاحب الأمر ، مما أطمع فيها العرب ... فاجتمعوا في دار عبد الله
ابن جدعان ، وكان محمد معهم في العشرين من عمره ، وتعاقبوا
وتعاهدوا على ألا يجذوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من
سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته .

أخذ القوم يتحدثون في مكة عن محمد وعن أمانته وصدق
حديثه ، وعن بعثته عن كل ما يمس الشرف والرجولة ، وعن رأيه
الناضج على حداثة سنه ، وعن زوفه عن ضجيج الحياة ووخزها ،
وعبث الشباب وملاهيهم ، ويتحدثون عن نبوءة الراهب يويرون
مصدقها أمام أعينهم ، ويتنبأون بما سيكون له من شأن عظيم .

فكانت تلك التولية العظيمة ، فحينئذ لم يكن
معه من المال إلا ما كان عليه .

واشتد الأمر على أبي طالب فقال لابن أخيه محمد : أنا رجل
لا مال لي ، وقد اشتد الزمان علينا ، وقد بلغني أن خديجة بنت
خويلد استأجرت فلاناً ببيكر بن ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته ،
فهل لك أن أكلمها ؟

قال محمد : ما أحببت .

ولم يكن محمد راغباً في الغنى ، ولو ترك الأمر لنفسه ، لقنع
بما هو فيه ، وليكنه آثر أن يفرج كربة عمه ، وأن يخفف من
صنائقه ، فاستجاب إليه .

وخرج أبو طالب إلى خديجة وقال لها : هل لك يا خديجة
أن تستأجري محمداً ؟ فقد بلغني أنك استأجرت فلاناً ببيكر بن ،

ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة أ بكر . فقالت وقد بلغها ما اتحدث
به قریش كلها عن فضله وأمانته : لو سألت ذلك لبعيد بفيض
فعلمنا ، فكيف وقد سألته لحبيب قريب ..

عاد العم لابن أخيه يذكر له الأمر ويقول له :
هذا رزق سافه الله اليك .

ذهب محمد الى خديجة ، . لم يرها قبل ذلك ولم تره ، ولكن
سمع بحبائها ومالها ، كما سمعت هي بشمائله الغر ، وحديثه
العذب . فلما التقت به ، رأت أمامها شاباً مشرق الطلعة ، وضاح
الجبين ، واسع العينين أدهجها ، في نظرتة سلطان الأمر الذي
يخضع الناس لأمره .

ورآها هو ، فوق ما تحدث الناس جمالا ورقه ، فأعجب كل
منهما بالآخر ، وارتاح اليه . . .

وعرضت عليه أن يخرج في غيراتها الى الشام وتعطيه
أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار . وانتدبت غلامها ميسرة
لصحبه وفضاء حوائجه .

خرج محمد بالخير ، وجعل أعمامه يوصون به أهلها . خرج
الى الصحراء ، يطويها في طريقه الى الشام ، ومرّ بالبقيع التي مرّ

بها مع عمه أبى طالب فأحيت في نفسه ذكريات تلك الرحلة . .
كانت قريبة الشبه بها فما كاد ينزل ببصرى من أرض الشام حتى
لقى فيها راهباً آخر أطلع رأسه الى ميسرة وقال له : من هذا
الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟

فقال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم .
فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي .
واستطاع محمد بأمانته ، وحسن تصريفه أن يتجر بأموال
خديجة ، فيربح لها أكثر مما ربح غيره ، وكان ميسرة اذا كانت
الهجرة ، واشتد الحر ، يرى ملوكين يظلان محمداً من الشمس
وهو يسير على بعيره . ولما آن له ولميسرة أن يعودا ابتاع خديجة
من تجارة الشام ، كل ما رغبت اليه أن يأتيها به .
وانطلقا حتى دخلا مكة في الظهيرة ، ورأت خديجة محمداً ،
وكانت في عليّة لها ، فنزلت حين دخل دارها واستقبلته .

أخذ يقص عليها أنباء رحلته وهى مأخوذة بمحدثه الساحر ،
مغتبطة بما سافه الله على يديه من ربح سابغ ، ورزق وفير .
وأقبل ميسرة من بعده : خشكى أسنانه ما شاهده من رقة
صاحبه ، ونهّل أخلاقه ، وقص عليها ما سمعه من الراهب

نسطور ، وما كان يراه من هذين المملوكين اللذين يظلان محمدًا
وقت الهاجرة ..

أخذت فمكرة الزواج تداعبها بين حين وحين ، وهى التى
ردت من قبل أيدى أعظم فتیان قریش شرفاً ونسباً ، وهى التى
حزمت أمرها على تنمية ثروتها وتربية أولادها بعد وفاة زوجها ..
وكيف تفكر فى محمد خاصة وهى تكبره بسنين ..

تحدثت فى ذلك الى صديقتها نفيسة بنت منية ، ولم تكن
تخفى عليها أمراً من أمورها أو خلجة من خلجاتها ، وأعادت عليها
ما سمعت من محمد ومن غلامها ميسرة ... وما وجدت من حبه
واحترامه . وقصت عليها حالمًا قديمًا ، استجيت أن تذكره فى
وقته ، فقد كانت نائمة فى مضجعها ، اذهبت من نومها مضطربة
أثر حلم رآته .. رأت شمسًا عظيمة تهبط الى دارها من سماء مكة .
فيغمر ضوؤها ما يحيط به من أماكن وبقاع ... وأخبرتها أنها
أسرعت الى ابن عمها « ورقة » وقد أصبح حبراً طالماً بتأويل
الاحلام وتعبير الرؤيا ، وما كادت تفضى اليه برؤياها حتى استبشر
وقال :

ستتزوجين يا خديجة ، وهذه الأنوار علامة على مجيى ، خاتم
النبيين ، ودخولها دارك دليل على أنك أنت التى ستتزوجين منه !
وقالت لصديقتها إنها إنما كتمت هذا الحلم عن كل انسان ،
لأنها كتمته فى الواقع عن نفسها أيضا ، وقد استبعدت تحقيقه ،
ولم تكن ليلة رأته تفكر فى زواج .

ثم قصت عليها حادثا آخر : وهو أنه بينا نساء أهل مكة
يجمعن فى عيد لهن ، منذ أمد ليس بالقريب إذ تمثل لهن
رجل ، أخذ يقترب منهن رويداً رويداً ، وينادى بأعلى صوته :
يا نساء مكة ، إنه سيكون فى بلدكن نبي ، فمن استطاعت منكن
أن تكون زوجا له فلتفعل . وأن النساء كذبنه وحصبينه . أما
هى فقد ذكرت حلمها السابق ، وأتت على قوله ، ولم تعرض له .
ورأت نفيسة ، ما عليه صديقتها ، وأحست ما يحيش به
فى صدرها ، وأدركت أنها تود لو يتاح لها أن تتزوج من محمد .
وحدثتها فى ذلك ، فصيح عندها ما هجست به ، وفكرت فيه .
فاتفقت الصديقتان على أن تسفرن نفيسة دسيساً الى محمد . ففعلت
وقالت له : ما يمنعك أن تتزوج ؟
قال : ما بيدى ما أتزوج به .

قالت : فان كفيت ذلك ، ودعيت الى المال والجمال والشرف
والكفاءة .. ألا تعجيب ؟ ..

قال : فن هي ؟ .. قالت : خديجة

قال : كيف لي بذلك ؟ .. قالت : على ذلك ..

وكان محمد قد اطمأن الى خديجة ، وأعجب بحالها ، وقوة
شخصيتها ، وما في خلقها من حزم وجلد ، ولم تسكن نفسه
تحديثه قبل هذا بالزواج منها لما رآه من ردها أشرف قریش
وأغنياءها .

وذهبت نفيسة نبشر خديجة بقبول محمد . فحدثت موعد
الزواج وأرسلت الى عمها عمرو بن أسد ، وكان يومئذ شيخاً كبيراً ،
لم يبق لأسد من صلبه غيره ، ولم يكن له ولد واتخذ خديجة له
بنتاً . أخبرته برغبتها في الزواج من محمد
فقال : هذا البضع لا يجمع أنفه .

ودخل محمد في عمومته ، وأصدقها فيما يقال عشرين بكرة .
ولم يكن أحب الى الأسرتين من هذه المصاهرة . فحمد لا يوزن
برجل الا رجح عليه شرفا ونبلا . وأهله حضنة البيت العتيق
وسواس حرمه . وخديجة أكثر نساء قریش مالا وشرفا .

وأهلها من سادة العرب وفادتها . والجميع يذكرون أن
« عبد العزى » كان دائماً مع « عبد مناف » وأن « بنى عبد العزى »
كانوا دائماً مع « بنى عبد مناف » يخالفون من خالفوا ، ويخاصمون
من خاصموا ، ولعل ما كان بينهما من حلف ، وما مر عليهما معا
من أحداث ، وما شاهدا من مشاهد كان بشيراً بهذه المصاهرة ،
وذلك الزواج .

٥

وانتقل محمد إلى دار خديجة ، وهى رجة اذا قيست إلى
غيرها ، كثيرة الغرف متسعتها ، فوقها عليّة كانت خديجة
تستروح بالجلوس فيها ، وهى التى رأت منها قدوم محمد وميسره
بغير انها قبيل زواجها .

عاش الزوجان فى هذه الدار عيش أمن ودعة ، ولم يكن
لفارق السن بينهما أثر . نخديجة التى بدأت العقد الخامس من
حياتها ، كانت شابة القلب يدفعها إعجابها بزوجها وحبها له ،
ذلك الحب المتعقل الرصين ، إلى تحرى رغباته ، وتحسس ميوله ،
والسهر على راحته . ومحمد كان ناضجاً ، راجح العقل ، كبير القلب

استطاع ولم تتجاوز سنه الخامسة والعشرين ، أن يقوم من خديجة
مقام الزوج والاب والأهل جميعا .

ورأت خديجة ألا تحول بين زوجها وبين الاشتراك في
الحياة العامة ، وأن تحلى بينه وبين ما أخذ نفسه به من تأمل
وتفكير . فأعفته من تدبير مالها ، وأخذت تقوم هي عليه كما
كانت تفعل قبل زواجها .

وكانت خديجة تعلم حق العلم ، أنها لم تزوج رجلا من عامة
الناس ، تشغله المطالب الصغيرة ، فحرصت على أن تحيطه في
في الدار بجو من الهدوء والطمأنينة ليستطيع فيه أن يخلو إلى
نفسه ، واليها ، وإلى الناس ، كما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ولم يمنعه ذلك كله بفضل ما هيأته له خديجة من أسباب
الحياة الوادعة الهنيئة ، من أن يابى داعي الجماعة . فقد كان
يشارك فريشا في أحاديثهم وسمهم ، يجلس وإياهم في دار الندوة
بجوار السكعبة ينصت إليهم وهم يتحدثون في تجارتهم وفي
مصالحهم ، ويشير عليهم برأيه الثاقب الحكيم حتى أخذت
الجماعة تفسح له مكان الصدارة يوما بعد يوم . فقام منها مقام
الناصح ومقام المشير ، ومقام الموفق لرغبتها ، الحلال لمشكلاتها

وكانت خديجة تسمع ما ينهض له زوجها من جلائل وما يسر
 على يديه من معضلات القوم ، فتفرح ، ويزداد إقبالها على
 الحياة معه وتعمل كل ما من شأنه أن يسعده وينلج خاطره
 ومن كان أسعد من خديجة عند ما عامت أن زوجها
 استطاع بكلمة منه أن يمنع حرباً لا يعلم إلا الله مداها . كانت
 ستشرك فيها قبائل قريش جميعاً ، فيفنى بعضها بعضاً . وما
 كان قيامها من أجل ثأر قديم أو جديد ، ولا كان من أجل خلاف
 على ثر من الآبار أو دار من الدور ، ولم يكن ذباداً عن لاجيء
 أو لاجئه ، أو استرداداً لنافقة أو بعير . . وإنما كان من أجل
 أقدم ما عندهم وهو الكعبة ، التي يحجون إليها ، والتي آلوا على
 أنفسهم ألا يشهروا السيف في موسمها . بل كان من أجل أقدم
 شيء في الكعبة نفسها وهو الحجر الأسود . فقد اجتمعت قريش
 على إعادة بناء الكعبة ، وقام محمد بنصيبه في هذا العمل الجليل .
 ولما جاءوا إلى الحجر الأسود ، اختلفوا في أيهم يكون له فخار
 وضعه في مكانه . وهو عمل سيذيع بين العرب جميعاً ، يتناقلونه
 وعيلاً بعد رعيلاً ، تضيفه القبيلة التي سوف تقوم به ، إلى مآثرها ،
 فيفخر به أبناؤها جيلاً بعد جيل ، فليس من العجيب إذن أن

تخدم الخلاف بين القبائل وأن يتطأير التمرز . وأشار مشير بأن
يصعدوا لحكم أول داخل عليهم ، فلما رأوا محمداً يطلع عليهم
تنفسوا الصعداء لما يعرفون فيه من نضواج لرأى مع الحصافة .
فأحضر ثوباً ونشره ، ووضع الحجر عليه ، وطلب من أمير كل
قبيلة أن يمسك بطرف من أطرافه ، ورفعوا الثوب الى ما يحاذي
موضع الحجر من البناء ، فتناوله محمد ووضع في موضعه .
ولولا ذلك لكان الحجر الأسود يوماً من أشهر أيام العرب
هولاً ، وأكثرها للنفوس بذلاً . . .

وكان الزوجان على يسارهما يعملان بأيديهما في كثير من
الشئون ، ترويضاً للنفس ، وتخفيفاً عن الخدم ، وكانت الدار
بهم عامرة ، كانا يعطفان عليهم ويحسنان اليهم وكانا لا يفارق هناك
بين السيد وعبد ، ولا بين ربة الدار وأمتها . . فازداد هؤلاء
الخدم بهما تعلقاً ، وفي خدمتهما إخلاصاً وتفانياً .

ولم يمض طويل وقت حتى أنجبت خديجة له القاسم ففرح
به فرح العربي للعقب من الذكور ، فسيحفظ له نسبه وسيفيق
اسمه وإذا ترعرع صار له وزيراً صديقاً . وفرحت خديجة لفرحه ،
وهي التي أنجبت قبل ذلك من الذكور اثنين . وكانت قابلتها

سلمى مولاة صفية عمة محمد وزوج العوام أخى خديجة فى الوقت نفسه ، فأعطتها شاتين ، وسامت الغلام كما دنتها الى مرضع أعدتها لذلك من قبل ، وما كان أسعد محمد حين يناديه الناس بأبى القاسم ، وما كان أسعد خديجه حين كانت تسمع الناس يكتونونه به .

وما انفرط عام حتى انجبت له بنتا أسمتها زينب ، وأعطت قابلتها سلمى شاة واحدة عند ولادتها ، وسامتها للمرضع كما فعلت مع القاسم ، واعتبطت خديجة لأنها أنجبت لزوجها ذكراً وأنثى ، يشد الأول أزره وتصل الثانية حبله .

ولسكن الأيام التى لا تستقر على حال واحدة ، أبت الآن نعوكر صفو هذين الزوجين الهائنين ، فقد أصابت الصغير وعكة لم يجد فيها طب أو دواء . فروعهما موته وجزعا عليه جزعاً شديداً وكانت خديجة تخرج مسرعة الخطى باقية الهم ، الى اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى تسترحمها وتستلمها الصبر ، وتدعوها أن تهب لها ولمحمد غلاماً آخر ، لعله يخفف عنه فقدان القاسم ، وكم من مرة حاولت أن تسكن حزنها وأن تموه عبراتها ، ولكنها لم توفق . وكان محمد كلما عاد الى بيته

واستشف حزنها حز في نفسه الألم المرير .

ولما لم يطق محمد على الحرمان صبراً ، وهبت له خديجة غلاماً
كان قد اشتراه لها حكيم ابن أخيها حزام ، فتبناه وأسماه زيداً
لمحبة قریش في هذا الاسم وهو اسم لقصى . وقد كان يمنحه من
أبوتة ، ما يمنح الرجل ابنه لصلبه . وكان يكنى بزید بن محمد ،
ولم يفرط فيه حتى لأبيه ، ذلك أنه لما قدم حارثة وكعب بمكة
في فداء ابنهما ، سألا عن محمد حتى وجداه فقالا له :

جئناك في ولدنا عندك ، فامنن علينا ، واحسن في فدائه فاننا
سندفع لك .

قال : وما ذاك ؟ قالوا : زيد بن حارثة ..
فقال : أو غير ذلك ؟ دعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم
بغير فداء .. وان اختارني ، فوالله ما أنا بالذي أختار علي من
اختارني فداء ..

فدعاه وقال : هل تعرف هؤلاء ؟ ..
قال : نعم ، هذا أبي وهذا عمي .

قال : فأنا من قد علمت ، وقد رأيت صحبتي لك ، فاخترني
أو اخترهما ؟

فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكان
الآب والعم .

فقالا : ويحك يا زيد ، أختار العبودية على الحرية .. وعلى
أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ ..

قال : قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، ما أنا بالذي أختار
عليه أحدا .

فلما رأى محمد ذلك أخرجه الى الحجر وأعتقه وقال : اشهدوا ،
ان زيدا ابني يرثي وأرثه ؟

ثم أنجبت خديجة له رقية فأعطت قابلتها سامى شاة ،
ودفعت بها الى الموضع كما فعلت بأختها ، وكانت الطفلة جميلة
يقترب مشكلها من أمها كلما استبانته ووضحت قسماتها .

وولدت بعد ذلك أم كلثوم وأعقبته فاطمة ، وكانت ولادتها
عام بنيان قريش السكعبة ، وقد سميتها خديجة « فاطمة على
اسم أمها .

وأصاب قريش أزمة شديدة ، وكان أبو طالب رجلا معيلا ،
فقال محمد للعباس عمه ، وهو من أيسر بني هاشم : يا عباس ، إن
أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه

الأزمة ، فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيته رجلا ، وتأخذ من بنيته رجلا ، فنكفيهما عنه .

قال العباس : نعم .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا : إنا تريد أن نخفف عنك من عيالك ، حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لي عقيلًا فاصنعا ما شئتما .

فأخذ محمد عليا فضمه إليه . وأخذ العباس جعفر فضمه إليه . وكان عليا في سن زينب ابنة محمد ، ولد في العام الذي ولدت فيه ، وظل مع ابن عمه حياته كلها . ولقي منه ومن زوجه خديجة التكريم والاعزاز ، وكان منهما في موضع الابن البار يجلبهما ويعجب بهما ، ويقدر صنيعهما معه ومع أبيه .

وهكذا عمرت الدار بالبنتين والبنات ، وقد انضم للجميع هند بن خديجة من أبي هالة ، فأدناه محمد وقربه وجعله في مكان أبنائه .

وعاشت هذه الأسرة راضية مرضية بين حذب الأم ، وحنان الأب ، وعطف الأبناء ، يصلون الرحم ويؤتون ذا القربى ، ويتزاورون مع العشيرة . وكان يلم بالدار أبناء الأعمام ، وأبناء

الأخوال ، فيلقون فيها ما يلقى الابن في بيته . وكانت خديجة
ترحب بالجميع وتشملمهم بأمومتها . وكان ممن يغشى الدار عتبة
وعتيبة أبنا عم محمد عبد العزى (أبي لهب) ، وهو عين من
أعيان بني هاشم ، وسيد من سادات قريش . وأبو العاص بن الربيع
من هاله أخت خديجة . وكان مؤاخياً لمحمد بحبه ويثني عليه ،
مقدراً من قومه لاستقامته ونجاح تجارته .

وعنى محمد بتزويج بناته ، كلما شبت واحدة منهن . فزوج
كبراهن زينب الى ابن خالتها أبي العاص . . وزوج رقية
وأم كلثوم من عتبة وعتيبة . أما فاطمة فكانت لا تزال طفلة .
وسايرت خديجة زوجها في سمو نفسه وتبيل غاياته . .
ورأت زوجها يبسط نفسه ويده ، للضعيف والمحروم ، فشاركته
بره وشجعته عليه . وفتحت دارها مثابة للمضطرين وأمناء ،
فقصدته الأيامى ، وخففت فيه أحمال كثيرين ممن أحنت
ظهورهم ، كثرة الآل وقلة المال .

هذه الحياة الهادئة الوادعة التي حملت خديجة كل أعبائها
 المادية أو جلها . . هذه الحياة التي عاشها محمد بين زوجته وأهله ،
 هيأت له ترك نفسه على سجيتهما ، والانقطاع الى التأمل
 والتفكير .

وقد احترمت خديجة ، رغبة زوجها العظيم في العزلة ،
 وساعدته عليها ، بما هيأت له من أسبابها . وكان يطلعها على
 نزوعه الى معرفة الحق واستكناه ما في الكون من أسرار
 فكانت تشبته وتشجعه عليه .

وما أسرع ما استجابت خديجة الى زوجها عند ما رآته
 يسير على سنة حكماء العرب ومفكرهم في الانقطاع زمنا في كل
 عام ، يأخذ نفسه فيه بألوان من المجاهدة ، ويعمل على كشف
 حجاب حسه وتصفية قلبه .

وقد اختار جبلا على فرسخين من شمالى مكة ، هو جبل

حراء . يقف بعزلة عما حوله من نجد وجبال ، ويشبه في استقامته
البرج المنطلق في السماء . واهتدى في أعلاه الى غار بنجوة من
العيون ، يصلح لما يريد من الانقطاع والتحنث ، لا يتسع لغير
فرد واحد ينام فيه . ولا يصل المرء اليه الا بالمرور بين صخرتين
تكادان تلتصقان . وهو محبوب عما حوله ، بصخور ضخمة
لا يتسرب منها النور الى أبعد من فوهته ، فأما وراء الفوهة
فظلام دامس لا تهتك العين حجابيه .

كان محمد بلجاً الى هذا الغار المنعزل كلما أقبل شهر رمضان ،
وخد بحة تهيء له ما يلزمه من الزاد ، فيسير به وحيداً منفرداً ،
مخترقاً طرق مكة من الجنوب حيث تقوم داره ، الى الشمال حتى
يبلغ الجبل ، فيصعد فيه الى قمته ، فيجلس عندها وقد أخذ منه
الجهد كل مأخذ ، فيجد الخدود وقد تجمعت فيها مياه المطر ،
وبالقرب منها الغار الذي يأوى اليه اذا أجنه الليل .

هنالك أخذ محمد يطالع الحياة وتطالعه ويسرح طرفه في
أرجاء الوجود ، ويتأمل بعين قلبه ما في السكون من آيات ،
فيسمو بنفسه ، وتصفو روحه ، لا تشوبها شائبة من شهوات
الدنيا ، ولا يفسدها عليه شيء من متاعها ولا من زخرفها .

وإذا انقضى شهر رمضان عاد الى بيته بادی الاعياء ، ينم وجهه عما يختلج في نفسه من هم وقلق . وترى خديجة مظاهر الاعياء والتفكير بادية عليه ، ففسرئ عنه وتهدئ نفسه ، وتحاول أن تزيل بعض ما ألمَّ بها من ضيق ، فيسكن اليها ويكشف لها عما يساوره ، فتتأثر به ، وينتقل اليها من همه وقلقه الشيء الكثير .

كفلت خديجة لزوجها الحياة المادية وشاركته هموم نفسه ، وزادت على ذلك فاصطحبته أكثر من مرة في طريقه الطويل الى الجبل ، وصعدت الى قمته ، وسرحت نظرها معه فيما كان يسرح فيه نظره من صفحة هذا الوجود . وكثيراً ما كانت تحمل اليه الطعام بنفسها ، فتسير في هذا الطريق منفردة ، وتحتمل مشقة التصعيد حتى تصل الى زوجها المنفرد بنفسه عن الناس . . فاذا انقضى العام وجاء شهر رمضان ، ذهب محمد الى حراء وعاد الى تفكيره فينكشف له الحق شيئاً فشيئاً .

ظلَّ على ذلك أعواماً ، خلصت نفسه من الباطل كله . وتهيات لما اصطفت له من أمر عظيم ، وخديجة الى جانبه تهيات نفسها ، لقبول هذا الأمر العظيم .

* * *

أخذت خديجة ترعى زوجها في هذه الآونة الدقيقة من حياته ، فتذهب بنفسها في الغار لتطمئن عليه . وترسل اليه رسلها اذا طال مقامه فيه . واذا عاد اليها حاولت جاهدة أن تعيد اليه هدوء نفسه ، وكلما زادت مخاوفه ، زاد اشفاقها عليه . ألم يكن يقوم في الليل فيرهف أذنه وقلبه ؟ وتثور به التأملات فينحدر من الغار ضارباً في الصحراء ثم يعود الى خلوته ؟ ألم يقل لها إنه يخاف على نفسه عبث الجن به ؟ ولكن خديجة وهي الحليمة العاقلة لم تفرق لذلك ، ولم تجزع ، ولم تنتن يوماً عن تبديد مخاوفه .

وبينا هو يتحنث في حراء الليالي ذوات العدد ، إذا به يرى في نومه الرؤيا الصادقة تنبلج كفلق الصبح ، فتبدد ظلمات الآباطيل والأوهام .

وطال مقام محمد بغار حراء مرة ، فأرسلت اليه خديجة رسلها يبحثون عنه ، فيه وفي الشهاب المؤدية اليه فلم يجدوه ، فقلقت عليه ، وخافت أن يكون قد مسه أذى .

ثم جاءها مرتاعاً هليماً وهو يقول : زمّلوني . زمّلوني . فزمّلوه ، حتى اذا ذهب عنه الروح . قالت له : يا أبا القاسم

أين كنت ، فوالله ، لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة
ورجعوا إليّ .

فأجابها : إني لشاعر أو مجنون . .

فقالت : أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ، ما كان الله
ليصنع ذلك بك مع ما أعلم من صدق حديثك وعظم أمانتك
وحسن خلقك ، وصلة رحمك . وما ذاك يا ابن صمي ؟ لعلك
رأيت شيئاً . .

قال : نعم ، جاءني وأنا نائم بغار حراء بنمط من ديباج فيه
كتاب فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ . ففتني حتى ظننت أنه
الموت ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ . وما أقول
ذلك الا افتداء منه أن يعود اليّ بمثل ما صنع بي قال : « اقرأ
باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك
الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » قال : فقرأته .
قال : ثم انتهى ثم انصرف . وهببت من نومي وكأنا ككتب
في قلبي كتاب ، واستطرد يقول وهي تنصت اليه خاشعة : ولم
يكن من خلق الله أحد أبغض اليّ من شاعر أو مجنون ، وكنت ،
لا أطيق أن أنظر اليهما . وقلت لنفسي أني لشاعر أو مجنون ،

لا تحدث به قريش أبداً . لأعمدن الى حالق من الجبل —
فلا طرحن نفسى منه ، فلا قتلنها فلا ستر يحن .

ثم قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى اذا كنت فى وسط
من الجبل ، سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ،
وأنا جبريل .

قال : فرفعت رأسى الى السماء ، فاذا جبريل فى صورة رجل
صاف قدميه ، فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله ،
وأنا جبريل .

قال : فوقفت أنظر اليه ، ومشغلنى ذلك عما أردت ، فما أتقدم
وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء . فلا
أنظر فى ناحية منها ، الا رأيت كمثل ذلك فازلت واقفاً ، ما أتقدم
أمامى ولا أرجع ورأى ، حتى بعثت رسلك فى طلبى .

ورجعوا اليك وأنا واقف فى مكاني . ثم انصرف عني
وانصرف راجعاً اليك .

وسمعت خديجة حديث زوجها فى اشفاق واهتمام باديين ،
وقالت له : ابشر يا ابن عمى واثبت . ثم قامت فجمعت عليها
ثيابها وانطلقت الى ابن عمها ورقة ، فأخبرته بما أخبرها به محمد .

قال ورقة : قدوس . قدوس . لئن كنت صدقتني يا خديجة .
لقد جاءه الناموس الأكبر ، الذي كان يأتي موسى ، فقول لي
فليثبت .

ورجعت خديجة الى محمد فألفتها لا يزال نائماً ، فأخذت
تلحظه في اشفاق وأمل وفما هي كذلك اذا به يهتز وينقل
تنفسه ، ويقوم ليستمع الى الملك بوحى اليه :
« يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ،
والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر . »

ورآته خديجة كذلك فازدادت اشفاقاً عليه ، وتقدمت اليه
في ضراعة أن يعود الى فراشه ، وأن ينام فيستريح فكان جوابه :
انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني ، جبريل ، أن
أنذر الناس ، وأن أدعوهم الى الله والى عبادته .

فجهدت خديجة ، تهون عليه الأمر وتثبتته ، وسارعت
فقصت عليه نبأ ورقة وما حدثها به .

ثم لقيه ورقة وهو يطوف بالببيت ، فقال . يا ابن أخي
اخبرني بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال له ورقة : والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ،
ليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك .

قال محمد : أخرجنى هم ؟ ..

قال ورقة : نعم . . إنه لم يجىء رجل قط بما جئت به
إلا عودى ، ولئن أدركنى يومك . أنصرك نصراً مؤزراً .

وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزله ، فلما
لقى خديجة ، قالت تثبته فيما أكرمه الله به من النبوة :

يا ابن عمّ ، ألتستطيع أن أخبرنى بصاحبك هذا الذى
يأتيك اذا جاءك ؟

قال : نعم . قالت : فاذا جاءك فاخبرنى به

وجاءه جبريل كما كان يأتيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم لخديجة : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى .

قالت : نعم ، فقم يا ابن عمّ فاجلس على فخذى اليسرى .
فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها .

قالت : هل تراه ؟ .. قال : نعم .

قالت : فتحول فاقعد على فخذى اليمى
فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها .

فقلت : هل تراه ؟ .. قال : نعم ..

قلت : فتحول فاجلس في حجرى ..

فتحول فجلس في حجرها ..

ثم قلت : هل تراه ... قال : نعم .

فألتفت خمارها ورسول الله جالس في حجرها ثم قالت :

هل تراه ؟ قال : لا ..

فقلت : يا ابن عمّ اثبت وابشر ، فوالله انه لملك ، وما

هو بشيطان ..

فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشعر بوحشة

من الناس ومن نفسه ، وعاد الى قلقه ، ومخاوفه ، قبل نزول

الوحي ، وقالت له خديجة : ما أرى ربك الا قد قلاك .. وجعل

يغدو الى رؤوس الجبال الشواهق ليتردى منها . فكلما أوفى

بذروة جبل تبدّئ له جبريل فيقول : إنك نبي الله .. فيسكن

لذلك جأشه ، وترجع اليه نفسه .

ثم جاءه الوحي بعد طول فتوره واذا نزل عليه بقوله تعالى :

« والضحى والليل اذا سجدى ، ما ودعك ربك وما قلى ،

وللاخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ،

ألم يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .

فرحمت خديجة بعودة الوحي الى زوجها ، واطمأنتت بطمأنينته ، وذهب قلقها بذهاب قلقه . وأخذ الوحي يعاوده ، والآيات تنزل عليه تباعاً .

ولما افترضت الصلاة أتاه جبريل وهو بأعلى مكة ، فعلمه الطهور والصلاة . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة وعلمها ما علمه جبريل .

ودخل عليّ بن أبي طالب الدار فوجد ابن عمه وزوجه ، يقومان ، ويركعان ، ويسجدان ، فوقف مبهوراً ، حتى اذا فرغا سألهما عما يفعلان فأنبأه النبا العظيم . فأمن وأسلم ومنه لا يتجاوز الثامنة . وكان الناس في الكعبة يرون رجلاً ينظر الى السماء ويستقبل الكعبة ، وعن يمينه غلام وخلفهما امرأة ، يركعان بركوعه ويسجدان بسجوده ويقومان بقيامه ، فيتساءلون ، ويتهامسون بأنهم محمد وعليّ وخديجة . وأنهم على دين ليس على وجه الأرض من يدين به سواهم .

ولم تنس خديجة على احتفالها بالدين الجديد، وتحمسها له ،
 ما يجب عليها نحو زوجها من تهيئة أسباب راحته وأمنه ، كانت
 تشاركه إيمانه وتعبده ، وتقوم في الوقت نفسه على مشؤونه
 وشئون أبنائه . وكانت تحمل اليه الزاد بأعلى مكة كما كانت
 تفعل أيام تحنثه ، فزادت بذلك قربا من الله حتى قال النبي
 صلى الله عليه وسلم : أتاني جبريل فقال : يا رسول الله ، هذه
 خديجة أتتك ومعهما إناء فيه طعام وشراب ، فاذا هي أتتك
 فاقرا عليها من ربها السلام .

وأخذت الدعوة تنتشر رويداً رويداً بين أهل النبي ، وخاصته
 وأصحابه وثقاته ، وإن خديجة لتعلم أن ذلك يزيد من أعبائها ،
 ويضاعف من عملها ، وهي مغتبطة به راضية ، فأسلم زيد وكان
 ثاني من أسلم من الذكور بعد علي ، ثم أسلم أبو بكر أنسب
 قريش لقريش وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر ،

وكان رجال قومه يألفونه لعامة وحسن مجالسته . فأخذ يدعو الى الله ، والى الاسلام . من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس اليه وعرف هؤلاء السباقون الى الاسلام ، أن قريشاً ، لن تصبر عليهم طويلاً لأنهم يدعون الى دين غير دين آبائهم وأجدادهم ، وكان يبلغهم ما يتهامس القوم به من أمر دينهم وصلاتهم ، فأخذوا يذهبون الى شعاب مكة ، يستخفون بصلاتهم ونجواهم ، واذا القوم رأوهم اهتزأوا بهم ، من ذلك أنه بينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي قاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى^(١) بعير ، فشجه ، فكان أول دم هريق في الاسلام .

وكانت خديجة تلحظ هذه الجماعة الاسلامية الصغيرة في غير قليل من الاشفاق ، لم ترتب قط ، في أن زوجها وصحابته وهى على حق . وأن سائر القوم على باطل ، ولكنها كانت تعلم ، أن هذا التستر لا بد سيبلغ حدّه ، وأن الله سبحانه وتعالى ،

(١) اللحم الذى على الفخذ

سوف يظهر دينه ، وأن تهامس قريش ، سوف ينتهي الى
المجاهدة فالملاحاه ، وهاهم قد بدأوا يشتبكون مع المسلمين ،
فتراق الدماء . إنها تخاف على زوجها وصحابتها النذر ، وان كانت
قوية الثقة بنفسها ، وبزوجها ، شديدة الايمان بدينها الجديد .

وقد أسلمت ابنتها زينب . ولم يسلم زوجها أبو العاص ،
ولا أسلمت أمه هالة ، أخت خديجة ، وأسلمت رقية وأم كلثوم ،
ولم يسلم زوجها عتبة وعتيبة ، وأسلمت فاطمة . وهكذا تم
إسلام أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم دون أصهاره ، وكان
ذلك نذيراً بما سيكون بين الأصهار ، من فرقة وخلاف .

وإن مخاوف خديجة لتعظم ، وأن هموم نفسها لتشتد؛ لم تعد
زوجة كسائر الزوجات ، ولا أمّاً كسائر الأمهات ، ينحصر
عملها في القيام على الدار والولد ، ولكنها أصبحت زوجة النبي ...
تتسع نفسها . فتشمل الجماعة الاسلامية النامية . وتبسط أمومتها
على المؤمنين جميعاً ، لكل منهم نصيب من عطفها ورعايتها ؛
وما قد تتعرض له بناتها ، جانب مما تتعرض له الجماعة الاسلامية
كلها . نعم .. إنها تحب لبناتها ما تحبه سائر الأمهات لبناتهن ،
زوج صالح كريم ، وما يستطيع أحد أن يقول ، إن زينب

تكره ابن خالتها أبا العاص ، وهو مقدم في قومه ، محبوب من
عشيرته وأهله ، انها تحبه وهو رب بيتها ، ولكنها تحب الله
رب العالمين أكثر منه ، وما يستطيع أحد أن يقول أن بنتا من
بنات قريش تطمع في خير من عتبة وعتيبة ابني عبد العزى ،
وأبوها عين من أعيان قريش وهما في الوقت نفسه ابنا عم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورقية وأم كلثوم تحسدان
عليهما ، ان كان يحسد الانسان على أمل فحسب ؛ لقد مرت
هذه المخاوف والهموم بنفس خديجة ، ولكنها كانت تغلب
عليها ، لا يخالجهما ريب في أن الايمان بالله الواحد الأحد . سوف
يعمر جميع القلوب فيربأ الصدع ، ويلتئم الشمل ، ويتجدد
الامل ...

وكان ثمة رجاء ، يداعب نفسها بين حين وحين . كانت
تريد أن تنجب لمحمد غلاما سريّا ، يؤنسه ويخفف عنه ، وأخوف
ما كانت تخافه ، أن يظل أبترا لا ابن له ، والعرب يعيرون
الأبترا ، ويقدرّون أبا الولد . وكلما كثرا أبناء العربى ، اشتد بهم
ساعده وقويت شو كته .

والأيام تمر ، ورجاءها في هذا الولد يضعف شيئا فشيئا ،

وهي تدنو من ختام الحلقة السادسة من عمرها يوماً بعد يوم .
وليس من شك في أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يحب بناته
حُباً لا يعدله حب ، ولكنه كان يتمنى ، في الوقت نفسه أن
يكون له ولد تمتد حياته فيه أعماراً وأعماراً ، لقد وهب له القاسم ،
ولكنه قضى قبل أن تغمر الفرحه به ، قلبي والديه .

وأخيراً تحقق الأمل الذي كانت خديجة تصبو إليه ،
وولدت له الابن المرتقب ، فسماه النبي ، عبد الله ، على اسم أبيه ،
ولقب بالطاهر والطيب لأنه ولد في الإسلام ، وفرح به أبواه
وأخواته وأهل الدار جميعاً ، ونسيت فيه خديجة جل همومها
ومخاوفها ، ونسى فيه رسول الله ، تهامس قريش عليه ، وعلى
صحابته ودينه ، وأشرق به وجوه أخواته ، وحمدت خديجة الله
مبجانه وتعالى ، على ما أعطي ووهب ، وذبحت الشاة وفرقت
لحومها على الفقراء والمساكين ، ابتهاجاً بمقدمه الذي طال
انتظارها له ، وخوفها من انقطاع رجائها فيه .

ولم تسكد الفرحه به ، تستقر في النفوس ، ولم تسكد
الآمال تنفقد عليه ، بل ولم تسكد الأمومة والأبوة تهيآن

لرعايته والعناية به ، حتى اختاره الله سبحانه وتعالى ، اليه برعما ،
لما تنفتح أكامه للحياة .

لقد مرت على خديجة المحن واحدة بعد أخرى ، فما فجعها
أكثر من موت عبد الله ، ولولا إيمانها بالله عز وجل ، وتوكلها
بالصبر ، وعزاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، لحزنت عليه
حزن الجاهلية وهى يوم فقدت القاسم بالأمس ، لم تكن
قد فقدت الأمل فى أن تنجب غيره ، ولكن أنى لها اليوم بغيره
وهى على عتبة الستين . . . أليس يحز فى نفسها أن زوجها لا يزال
يكفى بأبي القاسم ، كلما نادى به أحد ، التفت . . . وكل ولد لا يعوض
الآخر ، ووفاة عبد الله قد أحييت وفاة القاسم ، وهى ساعة تحزن
عليه ، تحزن على الاثنين معاً .

وخديجة تعلم علم اليقين : أن زوجها المصطفى من الله سبحانه
وتعالى ، ليس كغيره من الرجال ، ينصرف عن زوجته اذا ثبست
من الولد . . . إنه أسمى من ذلك وأعظم ، والولد والبنات منه سواء ،
ولسكنها كانت تحبه وتحب أن يكون له منها ولد . وخديجة
تعلم علم اليقين كذلك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحفظ
الرجال لودده ، وأوفاهم لعهدده ، لا يمكن أن يضار عليها ، أو

ينصرف عنها، ولو لم تنجب له ولداً ولا بنتاً؛ وخديجة تعلم علم اليقين أيضاً، أن محمداً أب يفرح اذا بشر بالولد، ويحزن اذا نعى اليه، وهو اذا واساها، فإنما يواسي نفسه معها. لم تستطع أن تخفي حزنها أو تغالب دموعها التي تحتبس بين جفونها. والله سبحانه وتعالى، يتمتع بنبيه، يعطيه ثم يأخذ منه، ليجعله مثالا في الصبر الجميل.

لقد عاد إلى زوجه بعد أن خط لحد عبد الله، لم ينس في حزنها حزنه وإن تشاغل به، عما في نفسه. لقد كشف دمع خديجة وواساها، وما يفيدها أن تفقد ولداً قد لا تنجب غيره، وهؤلاء المؤمنون جميعاً أبناءها، فلتتعز بهم عن عبد الله، ولتدع لهم كما تدعو الأم لأبنائها من نصر مبین.

٨

وانقضى على استخفاء المسلمين بصلاتهم في شعاب مكة، ثلاث سنين، وكان الناس يدخلون في دين الله فرادى، وقریش تنظر اليهم في استخفاف، يقل كلما خرج عليهم واحد من أبناءها... ثم انقلب هذا الاستخفاف، الى شيء من العبوس عند

ما استيقنت أن الأمر جد لا هزل فيه ، وأخذتها مسها يتحول
على الأيام الى ما يشبه اللغظ ، وأخذت النفوس تنهياً ليوم
لا كالأيام ، تدافع فيه قريش عن سننهم الموروثة ، ونظمها القائمة ،
في دفاعها عن آلهتها من لات وعزى .

في هذه الفترة التي يغلب عليها السكون المنذر بالعاصفة ،
أنزل الله سبحانه وتعالى على خاتم النبيين :

« وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك
من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون :

وقلق النبي صلى الله عليه وسلم ، على أثر نزول هذه الآية
قلقاً لا مزيد عليه . وخافت خديجة أن هو أنذر عشيرته الأقربين
يرى منهم ما يكره ، فليس من اليسير أن يتحولوا عن دين
وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم ، وليس من السهل على نفوسهم ،
أن يتزعزعوا عن سلطانهم القائم بقيام هذا الدين ، ومحمد مجرى
عليهم أبناءهم ، ويثير عبيدهم وإماءهم ، ويجتذب اليه نفراً من
عقلائهم وسرايتهم ، فلو دعاهم ، ما استجابوا ، بل وما انصرفوا
عنه موفورين ، ولكنهم سيخاضمون ، ويلجئون في الخصام ،
ويناكرونه ويشدون النكير ، ... لهذا وجه الرسول ، ووجه

زرجه ، أم المؤمنين ، حتى جاءه جبريل وقال له : يا محمد إنك
ألا تفعل ما تؤمر به ، يعذبك ربك .

وإذن . . فلا بد من أن يصدع بأمر ربه ، فينذر عشيرته
الأقربين ، ويخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين . وخديجة التي
اصطفاه الله سبحانه وتعالى له ، تقف الى جانبه ، كما وقفت من
قبل ، وقد استجمعت شجاعته وشجذت عزمها ، تخرجه من
قلقه وكآبته ، وتيسر له أمره وتهونه عليه .

ولأنه ليخرج من الدار بعد هذا ، وفي عينيه مضاء من
حشد نفسه لأمر عظيم ، فصعد الصفا وهتف :

يا صبا حاه . . .

قال بعضهم : من هذا الذي يهتف ؟ . .

قالوا : محمد .

واسترسل النبي صلى الله عليه وسلم في هتافه :

يا بني عبد المطلب ، . . . يا بني عبد مناف ، . . . يا بني أسد . . .

فاجتمعوا اليه .

فقال : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا

الجبل أكنتم مصدقاً ؟ . .

قالوا : ما جربنا عليك كذبا ..

قال : فاني نذير لکم بين يدي عذاب شديد .

فقال عمه عبد العزى : تبا لك ! ما جمعتنا الا لهذا ؟ ثم قام ،

وتفرق الجمع بعده .

وعاد النبي الى خديجة ، وقد زاد وجومه ، وظهر الهم عليه ..

وقص عليها نبأ الجمع ، وما كان من أمر عمه عبد العزى ، فأخذ

العجب منها كل مأخذ ، عند ما سمعت أن أول من أعرض هو

أقرب الأقربين اليه .. عمه وهو بنتيه .. فكيف يسترسل

في انذار عشيرته الاقربين ، وقد رأى منهم ما رأى ، ولما يزل

في أول الطريق ؟ .. وماذا يكون عند ما يبجلهم ، ويظهر

لهم فساد عقائدهم ؟ .. ولكن خديجة ، .. تقوى عزمه

أن كانت تعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يخذل نبياه . فنزل عليه

جبريل بقوله تعالى :

« تبت يدا أبي لهب وتب »

ما أغنى عنه ماله وما كسب

سيصلى نارا ذات لهب

وامرأته حمالة الحطب

في جيدها حبل من مسد »

وتعزى النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة ،
وذهب الهم عنه ، وسرّى عن خديجة ، لما علما بما ينتظر أبا لهب .
وأم جميل زوجته من عذاب مقيم ، لا نجاء لهما منه ، ولو بذلا
كل ما لهما من طارف وتليد . ولعل أشياخ قريش وفتيانها يخففون
من غلوائهم ، ويجنحون الى السلم فيما دعاهم اليه رسول الله ،
مخافة أن يحيق بهم ما سيحيق بأبي لهب وزوجه .

وأخذت الآية الكريمة تنتقل على الألسنة والشفاه ، حتى
بلغت مسامع أبي لهب وامرأته ، فاستشأطا غضبا ، وتشامخا
صلفاً وكبراً ، وتصامما عن هذا الكلام فى النار التى سيصليانها ،
وأخذاً بعيران النبى صلى الله عليه وسلم بفقره ، وبخاصة أم جميل
المعتزة بأنها أخت أبى سفيان وبنت حرب بن أميه .

ودفعهما الحق الى أن يحلا ما سبق أن عقدها ، فجمع
أبو لهب ولديه عتبة وعتيبة وقال لهما :

رأسى بين رؤوسكما حرام ان لم تطلقا ابنتى محمد ا

وقالت أمهما : إن رقية وأم كلثوم قد هبثتا فطلقاهما ا

وصدع الفتیان بأمر هذين الأبوين المتجبرين ، لا ينظرانه

ساعة غضبهما إلى قرابة أو مصاهرة، ولا يحفلان برغبات ولديهما
فيما يصدران من أمر.

وطلق عتبة وعتيبة رقية وأم كلثوم قبل أن يدخل بهما،
وقلباهما يكادان يتفطران من الحزن، فرقية أجل بنات خديجة
وأشبههن بأمها، وأم كلثوم من أرق بنات قريش حاشية
وأغضهن طرفاً.

وظن أبو لهب، وظنت زوجه أن النبي سيحزنه طلاق
بنتيه، ولكنه خيب ظنهما، وفرح بالنبا أيما فرح، فإريد
أن يربط مصير بنتيه بابني رجل لا برعى أسرة ولا يحفظ رحماً،
وامرأة غليظة القلب أبطرها المال والنسب.

أما خديجة فقد حمدت الله على خلاص ابنتيهما، ولم تجار نساء
قريش، فيما ذهبن إليه من أن عتبة وعتيبة، ممن يتشبث بهما، ويحرص
عليهما لأنهما يجمعان بين محتدين، محتد أمية ومحتد عبد المطلب.
وكانت رقية ذات جمال بارع، وكان عثمان يريد أن يخطبها
لنفسه، فلما تزوجها عتبة دخلت الحسرة قلبه، لأنه لم
يسبقه إليها. وما كاد يسمع نبأ طلاقها من عتبة، حتى أفعم
قلبه السرور، وأسرع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فزوجه

إياها مغتبطا راضيا ، وهكذا رأت خديجة أن الله سبحانه
وتعالى ، يعوضها وبناتها خيرا مما فقدن ، بعثمان بن عفان على
غناه ودمائه كان من أثر الناس على رسول الله ، وأقربهم إليه ،
وأسرعهم إلى الدخول في الاسلام ، وهو إلى جانب هذا
كله ، من أصبح قریش وجهها ، وأثرفهم نسبيا ، فأبوه من ولد
أمية ، وأمه من ولد عبد المطلب ، واقرن جماله بجمالها ، وكان
يقال : أحسن زوجين رأهما إنسان ، رقية وزوجها عثمان .

وأدركت أم جميل بأنها لم تغض أحدا سوى ولديها ،
فامتلات نفسها على محمد حقدا . وبيتت الشر لقرينها عثمان
وزوجه . وبات أبو لهب من ابن أخيه على ضغن ووتر .

٩

بادأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالاسلام ، لا يرده
غنه شيء ، فابتعدوا عنه وماردوا عليه ، فلما ذكر آلهتهم وعابها ،
ناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته .

وقيض الله سبحانه وتعالى له في هذه الفترة العصيبة ، زوجة
لا تدخر في سبيل نصرته جهدا ، ولا مالا ، وعما ، لا يمنعه شيء

من الحذب عليه ، والقيام دونه .

ورأت قريش ، النبي بين زوجته وعمه ، فشئ رجال من
أشرافهم إلى عمه وقالوا له : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب
آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فلما أن
تسكفه عنا . وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن
عليه من خلافه فسكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ،
وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله ، على ما هو عليه ، يظهر دين الله ، ويدعو
إليه ، يلاقى ما يلاقى في سبيل ذلك ، فاذا ما رجع إلى خديجة ،
أخذ يقص عليها ما يجد من صعاب ، فتثبته ، وتهون عليه أمر
الناس وهي تغالب نفسها وتستتر خوفها ، فينشرح صدره ، وترتاح
نفسه ، ويغضى في نشر دعوته ، بقوة مجددة ، وروح عظيم .

وأكثر قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا ،
وتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضا عليه ، ثم مشوا إلى أبي
طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك منا وشرفا
ومنزلة فينا ، وإننا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ،
وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ،

وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه .

عظم على أبي طالب فراق قومه ، وعداوتهم له ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله لهم ، ولا خذلانه . وأخيرا بعث أبو طالب إلى رسول الله وقال له : يا ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم ... فابق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحماني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه بداء ، وأنه خاذله ، ومسلّمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . .

فقال : يا عماء ، .. لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته ... واستعبر رسول الله فبكى ، ثم قام .
ولما ولىّ ناداه أبو طالب فقال : يا ابن أخي .

فأقبل عليه رسول الله فقال : اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحبيت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

ولما سمعت خديجة ما دار بين أبي طالب وقومه من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هالها الخبر واستعظمت ، وعرفت

أن قريشا لن تقف غضبتهم عند حد ، وأنهم ماضون في الكيد
لزوجها ، وصحابته والتآمر عليهم . . . وقريش أولو بأس شديد ،
تخافهم القبائل ذوات العدد ، ولا قبل للمسلمين على منازلهم ،
وهم قليل .

عرفت قريش ، أن أبا طالب أبي خذلان رسول الله وإسلامه
واجماعه لفراقهم ، فشو إليه فتي وقالوا له : يا أبا طالب هذا أنهد
فتي في قريش ، وأشعره ، وأجمله ، نخذه فلك عقله ونضرته واتخذ
ولدا ، فهو لك ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي ، قد خالف دينك
ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ،
فإنما رجل كرجل .

فقال أبو طالب : والله لبئس ما تسومني ، أتعطوني ابنكم
أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ، هذا والله لا يكون أبدا .
فقال أحدهم : والله يا أبا طالب ، لقد أنصفك قومك ،
وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل
منهم شيئا .

فقال أبو طالب له : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت
خذلاني ، ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك .

عند ذلك حقب الأمر ، وحسيت الحرب ، وتنايذ القوم ،
وتذامرت قريش على من في القبائل من أصحاب رسول الله ،
الذين إسموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من بها من المسلمين
يعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم .

وازدادت مخاوف خديجة ، وخشيت على النبي وصحابته
أذى القوم وكيدهم ، وانها لتعلم أن أبا طالب ، يقف دون ابن أخيه
وإن لم يدخل في الاسلام ، والقوم يحلونه ويوقروه ويسودونه
عليهم ، ولكنهم سيخرجون عليه ، إذا رأوا تمادى النبي في الخط
من دينهم ، وتمادى أبي طالب ، في منعهم عن ابن أخيه ، وعدم
إسلامهم إياه .

ولم تنس خديجة في هذه الأيام الحوالك ، أنها أم المؤمنين
ففتحت دارها لمن يقصدها ، وبسطت يدها لمن يحتاج إليها ،
وحاولت جهدها ، أن تحول دون تعذيب المستضعفين ، تمنع عن
بعضهم بطاش ساداتهم ، وتشترى بعضهم الآخر ، لتخلصهم من
ربقة الاذلال والظلم .

وقام أبو طالب ، حين رأى قريشا تصنع ما تصنع في بني
هاشم وبني المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله

والقيام دونه فاجتمعوا اليه ، وقاموا معه ، واستجابوا إلى ما دعاهم اليه .

فاطمأن قلب خديجة بعض الشيء ، أزرأت بنى هاشم وبنى المطلب ، يقومون قومة رجل واحد في الدفاع عن ابن عمهم ، وانها لتعلم أن قريش لن ترجع عما عازمت عليه ، وأن قيام بنى هاشم وبنى المطلب سيقوى من عزيمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويشد أزره ما في ذلك شك ، ولكنه سيزيد النار اشتعالا ، ويجعل الخصومة أشد وأخطر ، ولقد كانت بالأمس تريد أن تنازل رجلا واحدا ، ولكنها اليوم تتأهب لمنازلة قبيل وأى قبيل .

١٠

لو أن سيدة ، غير خديجة ، سمعت ما سمعته ورأت ما رآته ، من تصرف القوم حيال زوجها وصحبه ، لتزعزعت عقيدتها ، ولآثرت العافية ...

ألم يكن يبلغها أن القوم اذا سمعوا بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة ، سفهوا حلمه ، وخيلوا رأيه ، وضعوا شرفه ، وان كان تاجرا كسدوا تجارتهم ، وأهلكوا ماله ، وان كان ضعيقا أغروا به وضربوه ؟

ألم تسكن تسمع بأن كل قبيلة ، قد وثبت على من فيها ، من
مستضعفى المسلمين ، يذيقونهم العذاب ألوانا ، يحبسونهم ،
ويضربونهم ويمنعونهم الطعام والشراب أياما ، ليفتنونهم عن
دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء ، وقلبه مطمئن بالإيمان ،
ومنهم من بعصمه الله ، فيتصلب في دينه ، ولورأى الموت عيانا ...
ألم تسكن ترى الى الرجل من المسلمين ، كيف كان يطرح
في بطحاء مكة ، اذا حميت الظهيرة ، وتوضع الصخرة العظيمة
على صدره ، ليكفر بمحمد ، وبدين محمد ، وليعبد اللات والعزى ،
فلا يزيده ذلك الا صبرا على صبر ، وإيمانا على إيمان ...

ألم تسكن ترى الى هؤلاء الكفار غلاظ الآكباد ، يعذبون
النساء ، يضربون الواحدة منهن ، حتى تشرف على الموت ،
ولا يتركونها إلا سامة وملا لا ، وينكلون بالآخرى ، حتى يذهب
بصرها ، ويبقرون بطن الثالثة ، حتى تخرج أحشائها ...

ألم تسكن تشفق على رقية وعثمان ، من أبى لهب وزوجه
أم جميل ، اللذين لم يغفلا لحظة عن حقدهما القديم ، يكيدان
لرقية وعثمان ، ويتآمران عليهما ويلاحقانهما في حيثما يكونان ،
يسمعانهما من القول أخفشه ، ومن الكلام أقبحه ...

وها هي ذى تحس بالنار ، تستعر رويداً رويداً ، ويتسع
سرادقها ، فتعلم أنها موشكة على الاقتراب من دارها ، وأن
أبا طالب لن يستطيع أن يمنع ابن أخيه ، إذا فارت الفورة ،
وأن بنى هاشم وبنى المطلب ، لن يقدروا على الوقوف في وجهه
قريش ، إذا أجمعت رأيها ، على مناواتهم وهي لا بد فاعلة ، وشرر
الحرب يوشك أن يصير لهيباً .

وما تجلبت قوة امرئ وثباته كما تجلبت قوة خديجة وثباتها ،
في هذه الفترة الدقيقة من حياة المسامين . فحسب المؤمن ، أن
يذكرها أو يراها ، حتى يقبس من عزها وجلدها ورباطة جأشها ،
بل وحسبه أن يلجأ اليها ، حتى ترفأ دمه ، وتهون أمره ، وتعيد
اليه طمأنينة نفسه ، كانت تشاهد محنة المسامين تزداد ، فلا ينسبها
جزءاً عليهم ، أمومتها العظيمة لهم ، تواسى الحزين ، وتعين المحتاج ،
وتأخذ بيد الضعيف وتشتري العبد المسلم ، أو الأمة المسامة ،
لتعتقها وتخلصها من العذاب .

ولما علمت أن رسول الله ، أمر أصحابه بالهجرة ، تنفست
الصعداء ، فان بها ملكاً لا يظلم أحد عنده ، وهي أرض صدق ،
فليخرجوا اليها مخافة الفتنة ، وفراراً الى الله عز وجل بدينهم ،

ويقيموا فيها حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه .
وفيما هم ، يتأهبون للرحيل ، سارعت خديجة اليهم ،
تشجعهم ، وتهون عليهم ، فراق الأهل والوطن ، وتعينهم بالمال ،
وتفتح لهم خزائن غلاتها ، يزودون منها ، بما يحتاجون اليه
في سفرهم .

وكان أول الذين خرجوا ، عثمان ورقية ، فجهزتهما ، بما
يحتاجان اليه . وغالبت أمومتها ، وكتمت حزنها على فراق ابنتها ،
ولم لا ؟ أليست رقية ابنة رسول الله مثلا يحتذيه المسلمون في
الصبر والجلد ، واحتمال المكاره في سبيل نشر الدعوة وتبليتها ؟ .
ولم تنقطع أم المؤمنين ، عن الدعاء لهؤلاء المهاجرين ،
وفيهم ابنتها وابن أخيها الزبير بن العوام ، وقد تسلاوا سرا حتى
انتموا الى الشعبية ، منهم الراكب ، ومنهم الماشي ، ووفقههم الله
ساعة جاءوا ، سفيحتين للتجار ، حملوهم فيها بنصف دينار .

ودخلت أسماء ، بنت أبي بكر على أبيها وهو مع رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، بالغار تحمل الطعام اليهما ، فسألها النبي :
ما فعل عثمان ورقية ؟

فقالت : قد سارا . فالتفت الى أبي بكر وقال :

والذى نفسى بيده انه أول من هاجر بعد ابراهيم ولوط .
وأفاقت قريش وعامت بنبأ هؤلاء الذين خلصت أبدانهم
وأرواحهم من الطغيان والبغى ، فخرجوا يقتفون آثارهم ، حتى
بلغوا البحر ، فلم يدركوا منهم أحداً ، وعادوا أذراجهم وقد أخذ
منهم الغضب كل مأخذ ، وعقدوا العزم على التنكيل بمن بقى مع
رسول الله من المسلمين بمكة .

وأيقنت خديجة أن قريشاً ، لم تعد تحفل كثيراً بأبى طالب ،
ولا ببني هاشم ، ولا ببني المطلب ، وأنها ستجراً على النبي ،
بعد ان كان أذاها قاصراً على غيره . وهى اذا فعلت ، فسوف
يتكرر تعرضها له ، وإيذاؤها إياه .

ووقع ما كانت تخشى ، فقد اجتمع أشرفهم ، يوماً فى
الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا
مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشم
آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا
منه على أمر عظيم .

وبيناهم كذلك إذ طلع رسول الله ، فأقبل يمشى ، حتى استلم

الركن ، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرَّ بهم ، غمزوه ببعض القول ، ثم مضى .

ولما مرَّ بهم الثانية ، غمزوه بمنزلها ، ثم مرَّ بهم الثالثة ، فغمزوه بمنزلها ، فوقف وقال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح .

أخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، وحتى أن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ، أيرفاً بأحسن ما يجد من الكلام فيقول :

انصرف يا أبا القاسم راشداً ، فوالله ما كنت جبهولاً !

وإذ كان الغد اجتمعوا في الحجر فقال بعضهم لبعض : ذكركم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم ما تذكرون ، تركتموه .

فبيناهم كذلك ، إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم . فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، يقولون له : أنت الذي تقول كذا وكذا . لما يبلغهم من عيب آلهم ودينهم ، فيقول رسول الله : نعم . . أنا الذي أقول كذا .

وهنا أخذ رجل منهم بجمع رداءه ، ولوَّاه في عنقه ، وخنقه

خنفما شديدا ، فقام أبو بكر الصديق ، فوضع يده على منكبيه ،
فدفعه عن رسول الله ، وقال وهو يبكي : يا قوم أقتلون رجلا
أن يقول ربى الله

أما وقد حدث من القوم هذا الذى رأته وسمعت ، فلن يقف
كيدهم عند الغمز ، واللمز ، والتعرض ، والملاومة . . . ولكنهم
سيحتلون على قتله : ما فى ذلك شك .

وليس أدل على قلقهما من أنها خرجت يوما تلتمس رسول الله
بأعلى مكة ، ومعها غداوة ، فلقبها جبريل فى صورة رجل ،
فسألهما عن النبي ، فهابته ، وخشيت أن يكون بعض من يريد
أن يقتله ، فلماذا كرت ذلك لرسول الله قال لها :

هو جبريل وقد أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، وهو يبشرك
ببيت من قصب^(١) لا صخب فيه ولا نصب .

١١

ترى ماذا كان من موقف آل خديجة زوج النبي بأزاء هذه
الدعوة الجديدة التى جاء بها صهرهم ؟ وماذا كان موقف خديجة

(١) قصب : الذهب

منهم؟ كان آل خديجة كسائر العرب ، منهم من عبد اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، يتعصب لها ويبغض من يسبها ، ومنهم من كره عبادة الأوثان فانضم الى هذا الفريق أو ذاك من أهل الكتاب .

ولما أصر اليهم محمد فرحوا بهذه المصاهرة لعلمهم بأخلاقه ونسبه ، وكان له منهم أصدقاء يحبهم ويحبونه . وكانت داره أو دار خديجة مفتحة الأبواب لهم ، يجدون في ربها الأم والأخت جميعا ، تعطف عليهم وتبرهم ، وبغضفونهم على أولادها .

ولما بعث محمد بدين الحق وأمره الله بالدعوة اليه ، كان موقف أهل زوجه منه كموقف قريش ، فيهم من اتبعه ، وهم الأقلون ، وفيهم من ظل على صداقته للنبي ، وإن لم يدخل في الدين الجديد ، وفيهم من ناهضه ، فكان حربا على الإسلام والمسلمين . وكان ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة ، ممن كرهوا الأوثان وطلبوا الدين في الآفاق وقرأوا الكتب ، فاهتدى الى النصرانية آخر الأمر ، واتخذها له ديناً . وكان يرجو أن ينصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن يجاهد معه وأن يحتمل أذى قريش وإياه ، ولكنه مات — على المشهور — قبل أن يدعو

رسول الله الى الاسلام . وكان النبي يحبه ويقدره ويكره أن
يسب أمامه ؛ فقد سب أخ لورقة رجلا ، فتناول الرجل ورقة
فسبه . فبلغ النبي ذلك ، فنهى عن سبه . وكانت خديجة تجل
ابن عمها وتستنصحه ، في كل ما يعن لها ، وكانت تتمنى أن
يعيش ، فيتم الله سبحانه وتعالى نعمته عليه بالاسلام ، وقد
سألت النبي عنه فقال : قدرأيته فرأيت عليه ثيابا بيضاء ، فأحسبه
لو كان من أهل النار ، لم تكن عليه ثياب بيض .

أما أبناء خديجة من زوجها السابقين فقد أساموا جميعا ،
أسلم هالة وكانت له صحبة ، وهند ربه النبي صلى الله عليه وسلم ،
وكان وصافا فصيحاً بليغاً ، وصف الرسول فأحسن وصفه ، وهو
القائل : أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً ، أنى رسول الله ،
وأُمى خديجة ، وأخى القاسم ، وأختى فاطمة . وأسلمت أختها
هند وتزوجت ابن عمها صيفى الخزومي ، وكان أبناؤها يقال لهم
بنو الطاهرة لمكان خديجة .

وكان أصغر من اتبع الرسول من آل خويلد ، الزبير
ابن العوام ، فقد أسلم وله اثنتا عشرة سنة ، وقيل ثمان سنين ،
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويؤثره ، وهو الذي قال عنه :

« إن لكل نبي حواريا ، وحواري الزبير »

ومن عجب أن يسلم الأسود مع أن أباه نوفل وهو أخ خديجة ، كان شديداً على المسلمين ، وقد فر الأسود بدينه فيما بعد من المشركين عامة ومن أبيه خاصة ، وهاجر مع من هاجر إلى الحبشة . وأسلم خالد ابن أخيها الثالث حزام وطالب أرض الحبشة هو الآخر فأتى في الطريق قبل أن يبلغها ، وقد قال عنه الزبير ابن عمه : كنت أتوقع خروجه وأنتظر قدومه ، وأنا بأرض الحبشة ، فما أحزنني شيء ، كما أحزنني وفاته حين بلغتني ، لأنه كان من أسد بن عبد العزى ، ولم يكن قد بقى منهم معي بأرض الحبشة أحد .

وكانت خديجة تسمع بإسلام أولاد أخوتها هؤلاء واحداً بعد واحد فتسر له وتغضب به ، أن شرح الله صدورهم بالإسلام ، فكانوا عوناً للرسول على عدوه . لقد كانت تبرهم وتصلهم اقربهم منها ، فلما أسلموا ازدادت عليهم عطفاً ، وازدادوا منها قرباً ، وكانت تدعو الله أن يهدي سائر أهلها لا طلباً لتعزيتهم زوجها فحسب ، بل ورغبة في هدايتهم إلى الحق أيضاً . وما كان يسديتها شيء أبغ من بقاء بعض أخوتها وغيرهم من ذوى قربائها

على عبادة الأوثان ، ومنأواتهم الرسول وتحريضهم عليه .
وممن استجابوا لداعى المصاهرة والقرابة وإن لم يستجيبوا
لداعى الدين ، هالة أخت خديجة ، لم تسلم أول ظهور الاسلام ،
ولكنها لم تحجب أختها ، ولم تخاصم الرسول ، وكان ابنها أبو العاص
من رجالات مكة مالا وأمانة وتجارة . ومن المؤاخين لرسول الله ،
يكثرون غشاؤه فى منزله ، فزوجه زينب كبرى بناته . وكان النبی
يثنى عليه ويقول عنه : ما ذممناصره أبى العاص . . . بيد أن
اسلامه قد تأخر وسبقته زوجة اليه ، وإن ظل محتفظا مع ذلك
بولائه للنبي .

ولم يلب حكيم بن حزام أخى خديجة الدعوة الى الاسلام
عندما أنذر الرسول عشيرته الأقربين ، وهو الذى كان من
سادات قريش ومن العلماء بأسسابها وأخبارها ، ومن الذين
انتهى اليهم الرفادة ودار الندوة ، وكان صديقا لمحمد منذ الصبا ،
زامله فى حرب الفجار ، ولكنه مع توفقه عن الاسلام ، ظاهر
الرسول وصحبته على المشركين ، استجابة لدواعى الشفقة
والصدقة والمصاهرة جميعا .
وخديجة لتذكر زوج عمتها أبا قيس بن الأسلت الأوسى ،

الذي كان يحب قريشاً وكان لهم صهرآ ، عنده عمتها أرنب ،
وكان يقيم في قريش السنين الطوال بامرأته ، وله شعر يعظم فيه
الحرمات ، وينهى قريشا عن الحرب ، ويأمرهم بكف أذاهم
عن رسول الله .

وكانت خديجة تتساءل لساذا توقف هؤلاء عن الاسلام
وهم على ما فطروا من رقة الشائل وسماحة النفس ؟ أهو انسياق
مع الجماعة فيما درجت عليه لا تستطيع عنه حولا ؟ أم هو مخافة
ما قد يلحقهم من العار وسوء الأحداث ؟ أم هو الكبرياء الذي
جبل العربي عليه ، يدفعه إلى عدم الانقياد الا بعد مقاومة من
النفس ، تقصر أو تطول . . .

أما هبار حفيد المطلب عم خديجة فقد كان رجلا سبابا ،
لسنا ، شديد الوطأة على المسلمين . ظل يعمه في جهالته ، أمدأ
ليس بالقصير ، يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أصبتم
هبار فاجعلوه بين حزميتين وحر قوه .

وقد استفحل أمر أخيهما نوفل حتى أصبح من شياطين
قريش ، سريع البادرة ، بطاشا كما كان في صباه ، لجاجا في
خصومه ، قليل الحظ من الرشاد ، يفتق في تعذيب المسلمين .

فهو الذي امتحن الله سبحانه وتعالى به الزبير عندما وليه بعد وفاة أبيه العوام ، فكان يعلقه في حصير ، ويدخن عليه ، ليرجع الى الكفر ، فيقول الزبير : لا أكفر أبداً ، وهو الذي قرن بين أبي بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما ، في حبل حين أساما ، وسميا لذلك القرينين . وليس من شك في أن خديجة كانت ترى فعال أخيها فتستنكرها ، وتضيق بها . ماذا لو اتبع زوجها وأسلم ، فرضى الله عنه : كما رضى عن غيره من أصحاب الرسول . . . وماذا لو احترم أخوته لها ، فكف أذاه عن صهره ، وعن أصحابه . . .

واستمر نوفل على شقاوته حتى اذا ماتت أخته لج في خصومته : فدعى الرسول عليه بقوله : اللهم اكفني نوفل ابن خويلد ، فأسره جبار بن صخر يوم بدر ، ولقيه على فعراف أن حينه قد حان ، فأخذ يذكر عليها ، بأخوته لخديجة ويستنجد بذكراها ويطلب الأمان باسمها ، ولكن عليا كان قد عرف بوطأته على المسلمين ، وبدعاء النبي عليه ، فقتله . فقال عليه السلام عند ما بلغه مصرعه : الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه . وكانت خديجة تدعو الله في السر والعلانية ، أن يثبت

المؤمنين من أهلها على إيمانهم وأن يهدي المشركين منهم ، وهي
تعلم عائدة زوجها ، وصلته وصفحه ، والاسلام يجب ما قبله

١٢

خفف الله من روع خديجة وزاد من طمأنينة نفسها على
النبي صلى الله عليه وسلم أن قيض له واحدا من أقرب الأقربين
إليه ، هو حمزة عمه ، وأخوه في الرضاع ، وهو إلى هذا ، أعز
قریش ، وأشدّها شكيمة .

وما كان أسعدها ، عند ما أنبأها رسول الله ، بأن أبا جهل
مرّ عليه ، وهو جالس عند الصفا ، فأذاه وشتمه ونال منه بعض
ما ينكره من العيب لدينه والتضعيف له ، فلم يكلمه رسول الله ،
ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها ، فوق الصفا ، تسمع
ذلك ، ولم يلبث حمزة أن أقبل متوشحا قوسه ، راجعا من فنص
له . فلما مر بالمولاة ، أخبرته بما كان ، فاحتمل حمزة الغضب
وخرج سريعا لا يقف على أحد كما كان يصنع ، معدا لأبي جهل
إذا لقيه أن يقع به . فلما دخل المسجد ، نظر إليه جالسا في القوم ،
فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه به
فشجّة وقال :

أُنتِمته وأنا على دينه أقول ما يقول ، فردّ ذلك على
إن استطعت .

ولما أبصرت خديجة رسول أشراف قريش ، يطلب النبي
عامت أنه سوف يسرع اليهم ، لأنه كان عليهم حريصا ، يحب
رشدكم ويعز عليه عنتمهم ، وأشرق وجهها ، بنور الأمل إذ ظنت
أن قد بدا لهم فيما دعاهم اليه رسول الله بداء ، وأن القاق والاضطراب
والخوف سينقشع من النفوس ، وأن الفرقة والإقسام سيذهبان
وشيكا ، وأن الأمن والوئام واجتماع الكلمة ستسود الربوع
جميعا .

ولكنها ما لبثت ، أن رأت النبي صلى الله عليه وسلم ،
يعود اليها حزينا أسفا . . أخذ يقص عليها كيف قدم على هؤلاء
الأشراف ، من كل قبيلة ، وقد اجتمعوا عند ظهر الكعبة ،
فقالوا له : يا محمد ، إنا بعثنا اليك لنكلمك ، وإنا والله ، ما نعلم
رجلا من العرب أدخل على قومه ، مثل ما أدخلت على قومك ،
لقد شتمت الآباء ، وعبثت بالدين ، وسببت الآلهة ، وسفهت
الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته ، فيما
بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث ، تطلب مالا ،

جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت ،
إنما تطلب الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد
به مليكا ، ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رؤيا ^(١) ،
بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .
واسترسل يروي لها ، كيف أجابهم بقوله :

ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ،
ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ولكن الله . بمعنى اليكم
رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا
ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا
منى ما جئتمكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه
على أصير لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ، ..
وأخبرها كيف كانوا يحاجونه ويطلبون اليه المستحيل
تعتنا منهم وكيدا .

خاب أملها وعادت مخاوفها ، وهذه قریش لم تجتمع إلا على
مشر ، تبیتہ لرسول الله ، وأنها ما استقدمته ، إلا لتعذر فيه أمام

(١) الرئي : النابع من الجن

بني هاشم ، وبني المطلب ، وأيقنت أنهم قد أهدروا دمه ، ولن
يسكتوا عنه ، حتى يقتلوه .

وصدق ظنهما فهذا أبو جهل ، قد عاهد قريشا على أن يجلس
إلى رسول الله بحجر لا يطيق حمله ، حتى إذا سجد في صلاته ،
فضخ به رأسه ، وأنه لن يعبأ ببني عبد مناف ؛ فلما سجد رسول
الله ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه ،
رجع منهزما ممتعاً لونه ، رحمة من الله وفضله .

وهام قريش اشتد مكرهم ؛ برسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وهموا بقتله ، وعرضوا على رهطه ، ديتته حتى يقتلوه ،
ولكن رهطه أبوا ، فخماه الله بهم ، فوقفوا دونه يمنعونه أو
يهلكوا معه .

ولم ترتب خديجة لحظة ، في أن الله سبحانه وتعالى سوف
يتم نوره ، ولو كره الكافرون . وسرعان ما أسلم عمر بن الخطاب ،
المنيع الجلد الجليد ، الذي لا يرام ما وراء ظهره . فلم يعد للخوف
من نفسها موضع ، فيه وبحمده عاز المسامون قريشا ، وعزوا في
أنفسهم ، واتصفوا من عدوهم .

وما كان المسامون يستطيعون الصلاة في السكبية ، حتى

أسلم عمر ، فلما أسلم ، قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة ، وصلى
المسلمون معه .

ورأت قريش أن أصحاب رسول الله ، قد نزلوا بلدا ،
أصابوا به أمنا وقرارا ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ،
وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ،
وجعل الاسلام يفشو في القبائل ، فاجتمعوا وائتمروا ، أن
يكتبوا كتابا ، يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على
أن لا يصاهروهم ، ولا يبيعوهم شيئا ، ولا يبتاعوا منهم ، ولا
يخالطوهم ، ولا يقبلوا منهم صلحا أبدا ، ولا تأخذهم بهم رافة ،
حتى يساموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل ، وكتبوا هذا
كل في صحيفة ، وعلقوها في جوف الكعبة ، توكيذا على أنفسهم .

وانحاز بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، مؤمنهم وكفرهم
إلى أبي طالب ، فدخلوا معه في شعب من شعاب الجبل خارج
مكة ، وانتقلت خديجة وأهل بيتها إلى تلك الشعب راضية مرضية
هادئة النفس وأقامت معهم ما أقاموا .

أما أبو لهب بن عبد المطلب الهاشمي ، فقد كان حقه على
رسول الله وأهله ، أعظم من ولائه لقبيله ، وكانت استجابته

لزوجته أم جميل الأموية ، أقوى من استجابته لجماعته ، خرج
على بني هاشم ، وانحاز إلى قريش ، يظاهرهم على قومه .
وينصرهم على أبناء عمومتهم ، وكان يفاخر بذلك ، ويحمد من يمدحه
عليه ، وكانت العير إذا قدمت مكة ، وأتى أحد الهاشميين السوق ،
ليشترى شيئاً من الطعام لعياله ، يقوم أبو لهب فيقول : يا معشر
التجار ، غالوا على أصحاب محمد ، حتى لا يدركوا معكم شيئاً ،
فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن أن لا خسار عليكم .
فيريدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً ، حتى يرجع إلى أطفاله ،
وهم يتضاغون من الجوع ، وليس في يديه شيء يطعمهم به ؛
ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس .
وأقام بنو هاشم في الشعب محصورين مضيقاً عليهم أشد
التضييق ، وقد قطعت قريش عنهم الميزة والمادة ، فكانوا لا يخرجون
إلا من موسم إلى موسم حتى جهدوا جوعاً وعرياً ، ونال منهم
الاعياء ، واشتد الضرر وسمعت أصوات صبيانهم من وراء الشعب
على أن طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عنت
قريش ، وهم منهم ، وإخوانهم ، وأبناء عمومتهم ، جعل كثيرين ،
يشعرون بفداحة ما ارتكبوا من ظلم وقسوة . فلولا أن كان من

أهل مكة رجال ، لهم على المسامين عطف ، يحملون إليهم الطعام
في الشعب ، الذين احتتموا بها ، لهلكوا جوعا .

وكانت خديجة في الشعب كعهدا دائما أبدا ، مثلا رائعة
للصبر ، واحتمال المكاره ، والمواساة ، مع أنها قد نيفت على
الستين ، وكانت لرسول الله السند والمعين ، بما توليه إياه من
حبها وبرها ، ومن رقة نفسها وطهارة قلبها ، وقوة إيمانها . كانت
تهوّن عليه وعلى المسامين كل شدة ، وتزيل عن نفوسهم كل
خشية ، وكانت لهم ملك رحمة ، يرون فيها من معالم الرضا
والطمأنينة ، ما يزيدهم ثقة بأنفسهم وإيماننا بالله .

وكان بعض أقارب خديجة يمتالون في إيصال الطعام لها
والمسامين في غفلة من قريش ، وكان أشدهم اقبالا على هذا
العمل ، حكيم ابن أخيها حزام ، ولم يكن قد أسلم .

وروى أن أبا جهل رأى ذات يوم حكيميا ومعه غلام يحمل
قححا ، يريد به عمته خديجة ، فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام
إلى بني هاشم . والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك عليه .
فجاء أبو البختري بن هشام فقال : مالك وله ؟ قال : يحمل الطعام
إلى بني هاشم . فقال له أبو البختري : طعام لعمته عنده بعثت .

إليه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خلَّ سبيل الرجل . فأبى أبو جهل ، حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البختري ، حتى بعير فشجبه ، ووطئه ووطئاً شديداً ، وحمزة قريب يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك المسامين ، فيشمتوا بهم ويعرفوا أن القوم قد انقسموا على أنفسهم .

وانفقت خديجة مالها كله ، وأنفق أبو طالب ماله وكاد التلف يودي ببني هاشم وبني المطلب ، فأطلع الله ، سبحانه وتعالى ، رسوله ، على أمر صحيفتهم ، وأن الأرضة ، قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم ، وبقي ما كان فيها من ذكر الله . فذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك إلى خديجة فقالت : ما يمنعك أن تذكره إلى أبي طالب ؟

وخرج أبو طالب إلى كفار قريش وقال : إن ابن أخي قد أخبرني ، ولم يكن يكذبني قط ، أن الله عز وجل ، قد سلط على صحيفتك الأرضة ، فلحست ما كان فيها ، من جور أو ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى فيها كل ما ذكر به الله . فإن كان ابن أخي ، صادقا نزعتم عن سوء رأيكم ، وإن كان كاذبا ، دفعته إليكم ، فقتلتموه أو استحييتموه .

فقالوا : قد أنصفنا . . وأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها فإذا
هي ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسقط في أيديهم ،
ونكسوا على رؤوسهم . فقال أبو طالب : علام نجس ونحصد
وقد بان الأمر ؟

ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة فقال : اللهم انصرنا
من ظلمنا ، وقطع أرحامنا ، واستحل ما يحرم الله منا .
وانصرفوا إلى الشعب ، فتلوم رجال من قريش ، على
ما صنعوا ببني هاشم ، ولبسوا السلاح ، ثم خرجوا إلى بني هاشم
وبني المطلب ، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم .

١٣

خرج بنو هاشم ، وبني المطلب ، من الشعب ، بعد أن
لبثوا فيها ثلاث سنين أو ما يقرب منها ، وقد بدت أمارات الجهد
على رجالهم ، والاعياء على نساءهم ، والهزال على أطفالهم .
خرجوا يتحاملون ، وإن احتفظوا جميعا بقوة نفوسهم ، ورباطة
جأشهم .

وعادت خديجة إلى دارها ، وهي تغالب ما انتابها في الشعب

من وهن ، وانصرفت بناتها وخدمها واتباعها ، إلى اعداد الدار
التي شهدت شبابها ، وأخذت تهيب الغرفة ، التي عاشت فيها مع
محمد ، خمسا وعشرين سنة ، لم تذكر أنه قد دب فيها بينهما
خلاف ، والغرفة التي شبت فيها بناتها ، فكان لأمهن العون ،
ولأبيهن السلوى ، والغرفة التي كان محمد ، يعتزل الناس فيها
ويستقبل الوحي ، ويقوم الليل كله ، لا ينقص منه إلا قليلا ،
والعلية ، التي كانت تشرف فيها على الرأخين والغادين ، والتي
رأت منها محمدا وعلامها ميسره ، عند أوبتها ، بتجارتها في تلك
الأيام الغر الميامين .

هودبت الحياة مرة أخرى في جنبات هذه الدار المقدسة ،
يزورها الأهل والأقرباء ، ويلوذ بها المحتاجون والضعفاء ،
وخديجة التي أشرفت على الخامسة والستين ، دائبة الحركة
دائبة العمل ، لا تدخر الزمء من قوتها ، كما لم تدخره من مالها .
وعاد محمد ينشر دعوته ، على أهل مكة ومن يفد عليها في
الموسم ، فذاع أمره ، بين قبائل العرب جميعا ، وكثر اتباعه ،
ومع هذا كله لم يسلم أصحابه من أذى قريش ، ولم يستطع هو
لهم منعا .

واشتكى أبو طالب ، وقد نيف على الثمانين ، وقعدت به
الشيخوخة ، وبلغ قریش ثقله ، فقال بعضها لبعض : إن حمزة
وعمر قد أسلما ، وفشا أمر محمد ، في قبائل قریش كلها ، فانطلقوا
بنا إلى أبي طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعطه منا ، والله
ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

ومشوا إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث
تعلم ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وأنت تعلم الذي
بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه نخذه منا ، وخذ لنا منه ، ليكف
عنا ، ونكف عنه ، وليدعنا وديننا ، وندعه ودينه .

وبعث إليه أبو طالب ، فجاءه ، فقال : يا ابن أخي . هؤلاء
أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ، ليعطوك ، وليأخذوا منك ،
فعرض رسول الله عليهم الاسلام ، فأبوا مستكبرين ، ومضوا
مستهزئين .

وأفضى رسول الله ، بما دار بينه وبينهم إلى خديجة صاحبة
مشورته ، فعجبت من هؤلاء القوم ، يدعون إلى الحق ، فتوصد
قلوبهم دونه ، وأدركت أنهم لن يسكتوا عن أذى المسلمين
وعن أذى النبي نفسه ، حتى يقضى الله بأمره . وها هو أبو طالب ،

الذى كانت قريش تهابه وتوقره ، وكان بنو هاشم وبنو المطلب
يلبون نداءه ، ويأتمرون بأمره ، يلفظ أنفاسه . فن ذا يمنع النبي ،
ومن ذا يجمع الرهط حوله ؟ ..

وهلك أبو طالب ، وهو الذى كان له عضداً وحرزاً فى أمره ،
ومنعة وناصرأعلى قومه ، ولولا مخافة السببة على أبنائه من بعده ،
ومظنة الخوف من الموت ، لنطق بالشهادتين .

وبهلا كه اشتد أذى قريش للنبي ، ونالت منه ما لم تسكن
تطمع به ، فى حياة أبى طالب حتى ليقول : ما نالت منى قريش
شيئاً أكرهه ، حتى مات أبو طالب .

وما كادت دموع رسول الله تجف على عمه ، حتى فوجئ
بوفاة زوجه خديجة^(١) ، فزادت وحشته ، ووجد عليها حتى
خشى عليه ؛ فقد كانت له أما ، تسكن روعه ، وتهون أمره ،
وزوجا يسكن اليها ويأنس بها ، ووزير صدق يطلب عنده
النصيحة الناضجة والرأى السديد .

ودفنت خديجة ، أم المؤمنين فى مقابر المعالة بالحجون ،

(١) هذا هو المشهور وان ورد فى كتاب ابن الأثير أن خديجة ماتت
قبل أبى طالب (ج ٢ ص ٣٤) طبعة القاهرة .

في الشمال الشرقي من مكة ، ونزل النبي صلى الله عليه وسلم في
حفرتها ، ولم تكن صلاة الجنائز قد شرعت .

وروع المصاب بناتها ، ولولا أن رسول الله أخذ يكفكف
من عبراتهم ، ويسكن من زفرائهن ، لأتلفتن الفجيرة ،
وقضى عليهن الحزن . أما المسلمون فقد كان كل واحد منهم ،
يرى المصاب مصابه ، فقد كانت أم المؤمنين جميعا ، ليس فيهم
من لم يشمله برها أو يظله إيمانها ، كانت تقوى من عزيمتهم ،
في حين كان أبو طالب يعمل جهده على حمايتهم .

عاشت خديجة مع النبي خمسا وعشرين سنة لم يتزوج عليها
قط ، بل ولم يتزوج بعدها مجرد الزواج ، وإنما تزوج جبراً
لكسر تدفع اليه النخوة ، وتوثيقاً لرابطة خاصة أو عامة ،
وتوهيناً لخصومة ، طالما آذت المسلمين . وحدث من انتشار الاسلام .
وكان النبي لا يكاد يخرج من البيت في يوم من الأيام ،
إلا ذكرها ، وأحسن الثناء عليها ، حتى قالت عائشة رضي الله
عنها : ما غرت على امرأة للنبي قط ، ما غرت على خديجة وما
رأيتها ، ولقد هلك قبل أن يتزوجني ثلاث سنين ، لما كنت

أسمعه يذكرها » وصارحت النبي صلى الله عليه وسلم مرة : وقد أخذتها الغيرة على خديجة « ما كانت إلا عجوزا أبدلك الله خيرا منها » فغضب رسول الله وقال : « لا والله ، ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بما لها إذ حرمي الناس ، ورزقتني منها الله الولد دون غيرها من النساء . » واستأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فعرف استئذان خديجة ، فارتاع لذلك ، فقال « اللهم هالة ! » قالت عائشة : فادركني ما يدرك النساء من الغيرة ، وقلت : ما تذكرك من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكمت في الدهر ، قد أبدلك الله خيرا منها ، قالت فتغير وجه رسول الله ، لم أره ، تغير عند شيء قط ، إلا عند نزول الوحي ، أو عند المخيلة حتى يعلم أرحمة أو عذاب . وكان النبي إذا ذبح الشاة يقول : « ارسلوا إلى أصدقاء خديجة » قالت عائشة : « فذكرت له ذلك يوما » فقال : « إني لأحب حبيبها » .

ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم وكان أبو العاص وهو ابن هالة ، أخت خديجة منهم ، بعثت زوجها ، زينب بنت رسول الله

إلى أبيها تقول : « إنه أبو العاص ، إن قرب فابن عم ، وإن بعد
فأبو ولد ، وإنى قد أجرتك » . وبعثت إليه كذلك بقلادة لها ،
كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص ، فلما رأى رسول الله
صلى الله عليه وسلم هذه القلادة ، رق لهارقة شديدة ، وذكر
خديجة فقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها
وتردوه عليها فافعلوا » .

ولم ينس النبي قط خديجة « الولود الودود » خديجة
« ربة البيت وأم العيال » كان يصل صدائقها ويبر خلائها ،
لا يفتأ يذكرها ويذكر آثارها ، وقد عاشت معه في بناتها .
— روى أن رسول الله خط في الأرض أربعة خطوط قال :
أتدرون ما هذا ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم .

فقال رسول الله : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ،
وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم
ابنة عمران .

١٤

كانت خديجة من محمد بمثابة الأم والصديق والزوج جميعا ،
آمنت به إذ كفر الناس ، وواسته بمالها إذ حرمة الناس ، ومحضته

النصح عند ما انبلج الوحى عليه ، واحتملت وإياه أذى
المشركين ، فلا عجب أن تكون لجميعته فيها ، أعظم من فجيعة
أى امرئ فى زوجه ، لم يهون عليه إلا صبر الأنبياء ، ولم يسر
عنه فيها إلا بناته منها ، والآل وقد ماتت زوجه البرة ولم يبق له
منها إلا بناته الأربع ، فقد اشتد اعتمادهن عليه ، وزاد حننه عليهن .

وكانت رقية بارة الحسن كثيرة الشبه بأُمها ، تذكر النبي
بخديجة ، فى لفظها وإشارتها ، وقد زوجها من عتبة بن أبى لهب
قبل النبوة ، فلما بعثه الله بالدين الحق ، فارقها عتبة ، فزوجها
عثمان بن عفان ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجو أن
يكون له منها حفدة ، ولكنها أسقطت سقطاً ثم ولدت بعد
ذلك غلاماً أسمته باسم أخيها الراحل عبد الله ، وبه كان يكنى
عثمان ، ولما نكحها فمات ، ولم تلد بعد ذلك .

وأصيبت رقية بالحصبة ، فتغلب عثمان وأسامة ابن زيد
عن بدر ، وبينما كان زيد بن حارثة على ناقه رسول الله الجداء ،
ينهب الأرض الى المدينة مبشراً بقتل المشركين فى هذا اليوم
الحاسم ، كان عثمان يدفن زوجه ، وبكت النساء رقية ، فجعل
عمر بن الخطاب يضربهن فقال النبي : مهما يكن من العين ومن

القلب ، فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان ، فمن الشيطان . فقعدت فاطمة على شفير القبر تبكي أختها فجعل النبي يمسح عن عينها بطرف ثوبه : ولعله كان يواسي نفسه بمواساة فاطمة ، فقد كان مصابه في رقية مصابين ، مصابه في فلذة من فلذاته ، ومصابه في خديجة يعاوده بوفاة أشبه بناته بها .

وكانت زينب الكبرى بناته ، ولدت قبل البعثة بأمد ليس بالقصير ، أسلمت ولم يسلم زوجها ، ووقفت وأبوها في جانب ، ووقف زوجها في جانب آخر ، كانت برة بأبيها ، وفية لزوجها ، على اختلاف ما بينهما من دين ، وهاجرت إلى المدينة وفي الطريق نحسها هبار وكانت حاملا فأسقطت ، وبلغ من وفائها لزوجها أنها لما علمت بأنه أسر في بدر ، وقدم أخوه عمرو في فدائه أجارته ، ولما أسر الثانية ، في سرية زيد بن حارثة أجارته ، أيضا . وسألت رسول الله أن يرد عليه ما أخذ منه ، ثم أسلم وردت عليه زوجته .

وتوفيت زينب في السنة الثانية لهجرة الرسول ، وقد نيفت على الثلاثين ، فبكى فيها أبوها ، ما ورثته عن أمها خديجة من وفاء ، وبلغ من حبه ابنتها أمامة التي عاشت بعدها أنه كان

يحملها على عاتقه وهو يصلي ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها .
وروت عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ، أهديت له هدية
فيها قلادة من جزع ، فقال : لادفعنها إلى أحب أهلي إلى . فقالت
النساء : ذهب بها بنت أبي قحافة (أي عائشة) ، فدعا رسول الله ،
أمامة ، فألقها في عنقها .

وكانت حياة أم كلثوم كحياة رقية ، هاجرت إلى المدينة لما
هاجر النبي مع فاطمة وغيرها من عياله . وتزوجها عثمان بعد موت
أختها رقية وعلى مثل صداقها ، ولم تنجب له ولدا ولا بنتا ،
وتوفيت سنة تسع ، ووقف النبي على قبرها وعيناه تدمعان ،
وهو يرى بناته تموت الواحدة منهن بعد الأخرى ، وقد تيف
على الستين ، لا أمل له في عقب ، فيبكيهن ويبكي أمهن
خديجة التي كان له منها الولد دون غيرها من أزواجه .

وكانت فاطمة أصغر بنات النبي صلى الله عليه وسلم ،
وأحبهن إليه ، وأشبههن به ، وقال رسول الله : إن فاطمة بضعة
مني يؤذي ما أذاها . ويريدني ما رابها . وقال لها : إن الله يرضى
برضاك ويغضب لغضبك .

وزوجها أبوها ، إلى أقرب الناس إليه ، إلى ابن عمه علي

ابن أبي طالب، وقد روى أنه كان بين علي وفاطمة كلام، فدخل
رسول الله، فلم يزل حتى أصلح بينهما، ثم خرج، فقيل، دخلت
وأنت على حال، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك. فقال:
وما يمنعني، وقد أصلحت بين أحب اثنين إليّ. ١

ولما مرض النبي صلى الله عليه وسلم مرضه الأخير. أقبلت
فاطمة، وكان مشيها مشى أيتها، فقال: مرحبا بابنتي، ثم أجلسها
عن يمينه، ولحق بالرفيق الأعلى.

وامتدت حياة رسول الله في حفيدي من فاطمة الحسن
والحسين، فكان لهما ولديتهما؛ ولمن انتسب اليهما، شأن عظيم،
فيما مر على العالم الاسلامي كله من أحداث جسام.



بعض المراجع

- ١ — أبو عبد الله محمد بن سعد : الطبقات الكبرى
- ٢ — أبو محمد عبد الملك بن هشام : سيرة النبي عليه الصلاة والسلام
- ٣ — تقي الدين أحمد بن علي المقرئ : امتاع الاسماع . . .
- ٤ — ابن حجر العسقلاني : الاصابة في تمييز أسماء الصحابة
- ٥ — ابن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك
- ٦ — ابن الأثير : الكامل
- ٧ — السيد عبد الحميد الزهراوى : خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها
- ٨ — الأميرة قدريه حسين : شيرات النساء
- ٩ — عباس محمود العقاد : عبقرية محمد
- ١٠ — محمد حسين هيكل باشا : حياة محمد
- ١١ — ، ، : فى منزل الوحي

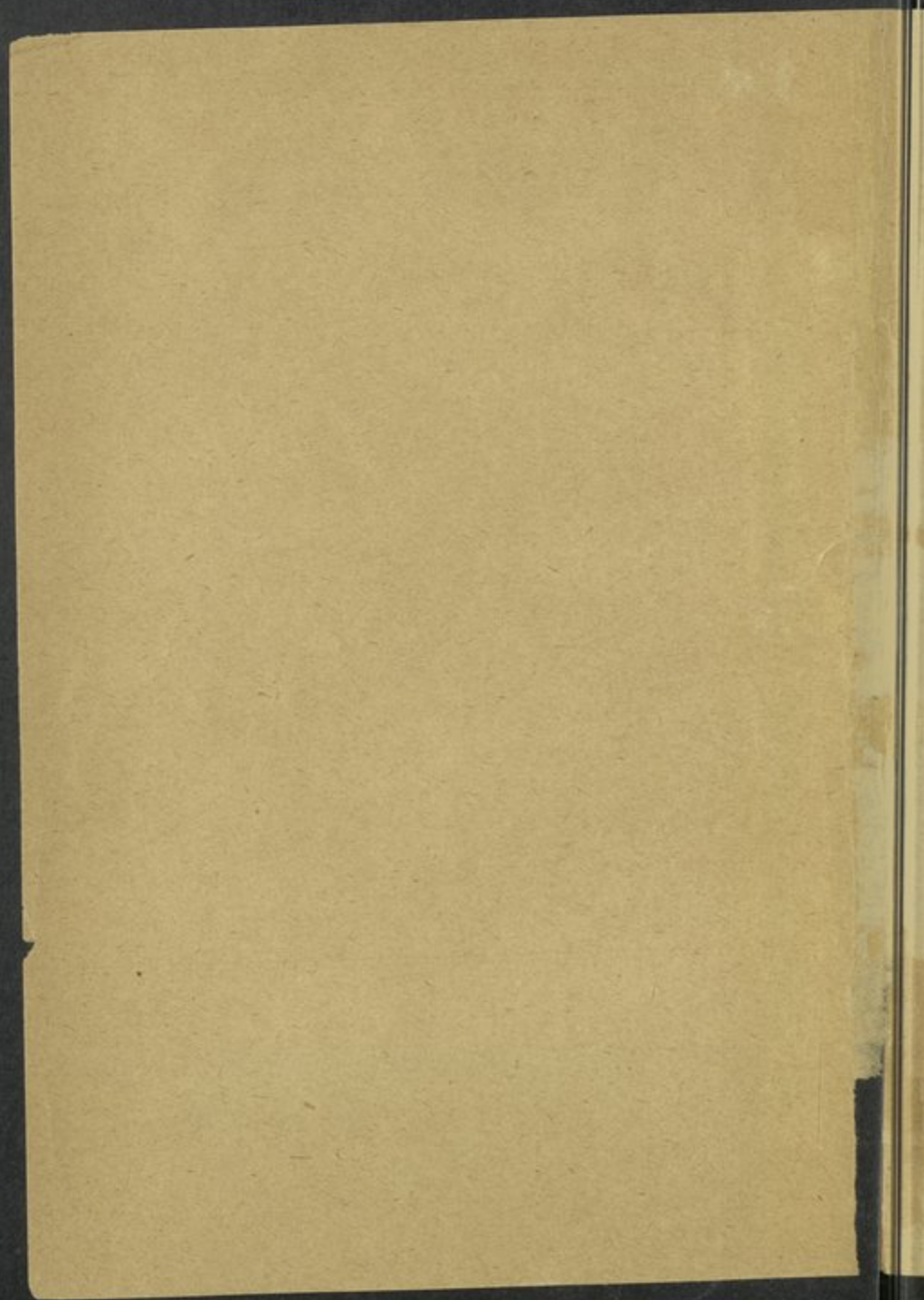
تفضل الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي صاحب المعاجم النفيسة الخاصة بالفاظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة فأطلعنى على كثير من الأحاديث المتفلفة بالسيدة خديجة رضى الله عنها والواردة فى كتب الحديث الصحيحة فله عني وعن القراء أجزل الشكر والمؤلفة

دار الفكر العربي

تليفون ٥٦٤٦٧

أصرت عربيا

- **الحن الخالد «كلم»** : للأستاذ كامل عجلان ، قصة تصور العصر الذي بلغ فيه الفناء قته ، أبطالها من خلق القلم الفتن ، ولكن صورهم من أحياء رجال عصر المتوكل العباسي وثمنها ١٢ قرشا
- **سر الحاكم بأمر الله** : قصة مسرحية للأستاذ علي أحمد باكثير ، تجلو شخصية الحاكم وتكشف سرها الذي حير المؤرخين طوال العصور وثمنها ١٥ قرشا
- **اعتراف منتصف الليل** : تأليف جورج ديهايل وترجمة الأستاذ شكري محمد عياد بمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، قصة الحرمان والبؤس والفقر والذل ، قصة مجتمعتنا الحاضرة وما فيه من شذوذ مع براعة الوصف وعمق الفكرة وإحكام السرد وثمنها ١٢ قرشا
- **مرقص العميان** : للكاتب الدكتور عارف العارف الحماني بسوريا ، قصة رائعة أخذت من الحياة أصلها ومن الفكر ثمرته ، حوادث في فقد البصر ولم يفقد البصيرة فصورت نزعاته وتعب آلامه ولمذانه وأطلعنا على الشيء الكثير من دنيا العميان وثمنها ١٠ قروش
- **أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء** : للكاتبة القديرة السيدة وداد سكاكيني فيها خير حافز لفتيات الإسلام وأمهات المستقبل ليتخذن منها الأسوة الحسنة وثمنها ١٥ قرشا
- **أقاصيص** : لكبار كتاب الانجليز المعاصرين ، مجموعة منتخبة من أروع القصص تهدف كل منها لغرض من الأغراض الخلقية النبيلة ترجمة الأستاذين محمد بدران وإدوارد رياض وثمنها ١٢ قرشا
- **قصة مدينتين** : خير ما كتب المؤلف الانجليزي الشهير تشارلس دكنز تشرح أحداث الثورة الفرنسية وتصف حال الشعب الفرنسي قبل هذه الثورة في قالب قصصي جميل ، نقلها إلى العربية الأستاذ محمد بدران وثمنها ١٢ قرشا
- **ذات الثياب البيض** : للكاتب الانجليزي ولكي كلتر من كبار كتاب القرن التاسع عشر نقلها إلى العربية الأستاذان محمد بدران وأحمد حلمي علي ، رواية تهدف إلى غرض أخلاقي جليل وهو أن تقوم الحياة الزوجية على أشرف الأغراض الاجتماعية لا على المال وغيره من الأعراض الزائلة وثمنها ١٥ قرشا
- **هكذا نسير** : قصص مصرية للأستاذ درويش الجليل ، طائفة متباينة من النفوس البشرية ، في ثنايا مجموعة من الفصص القصيرة ، في كل صفحة نبضة وفي كل نبضة فكرة وثمنها ١٥ قرشا



DATE DUE



297.64:T234KA:c.1

توفيق، بئينة

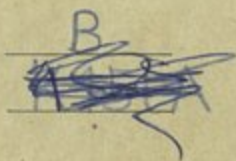
خديجة أم المؤمنين

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01012209

American University of Beirut



General Library

297.64
T234kA
C.1